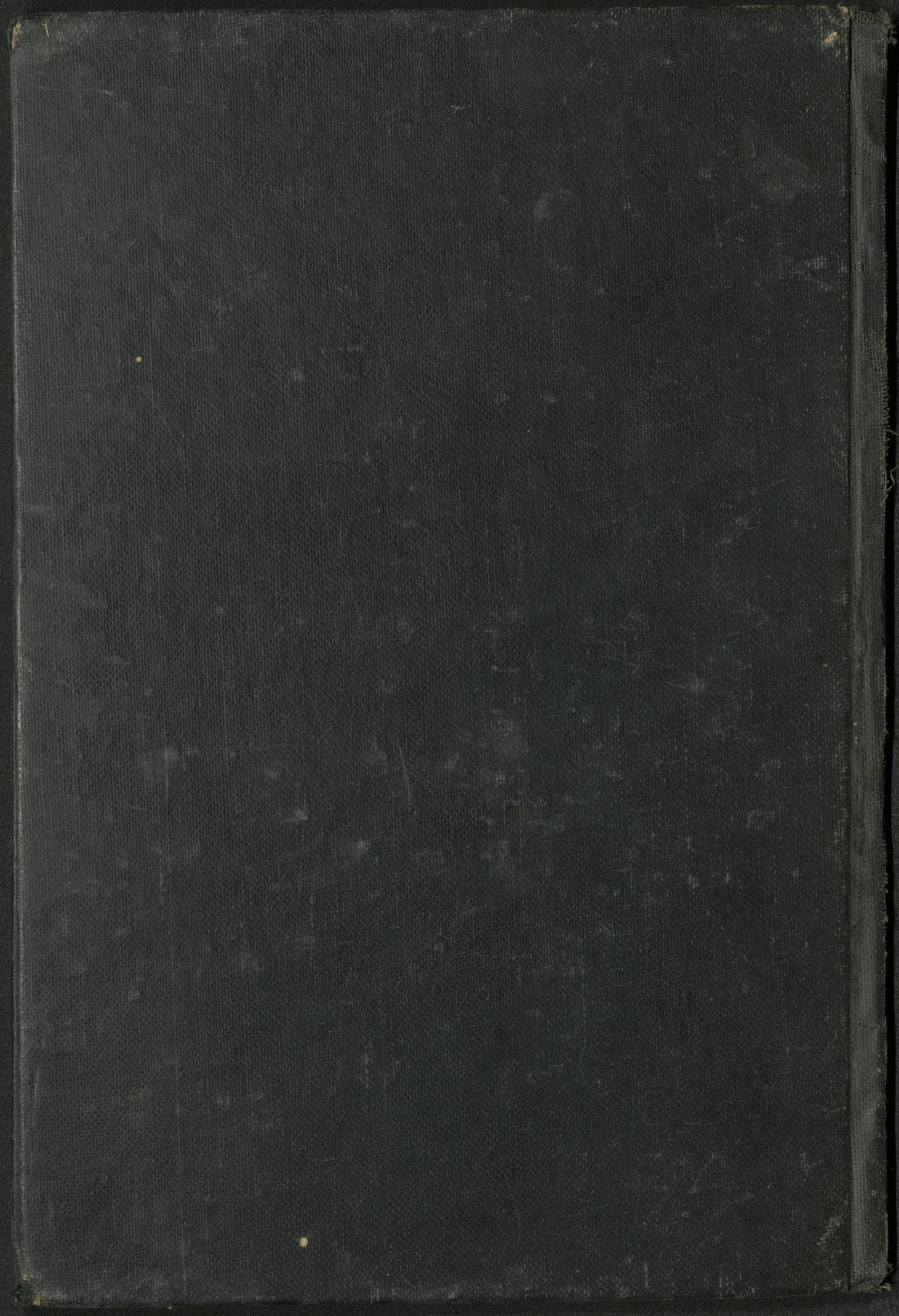
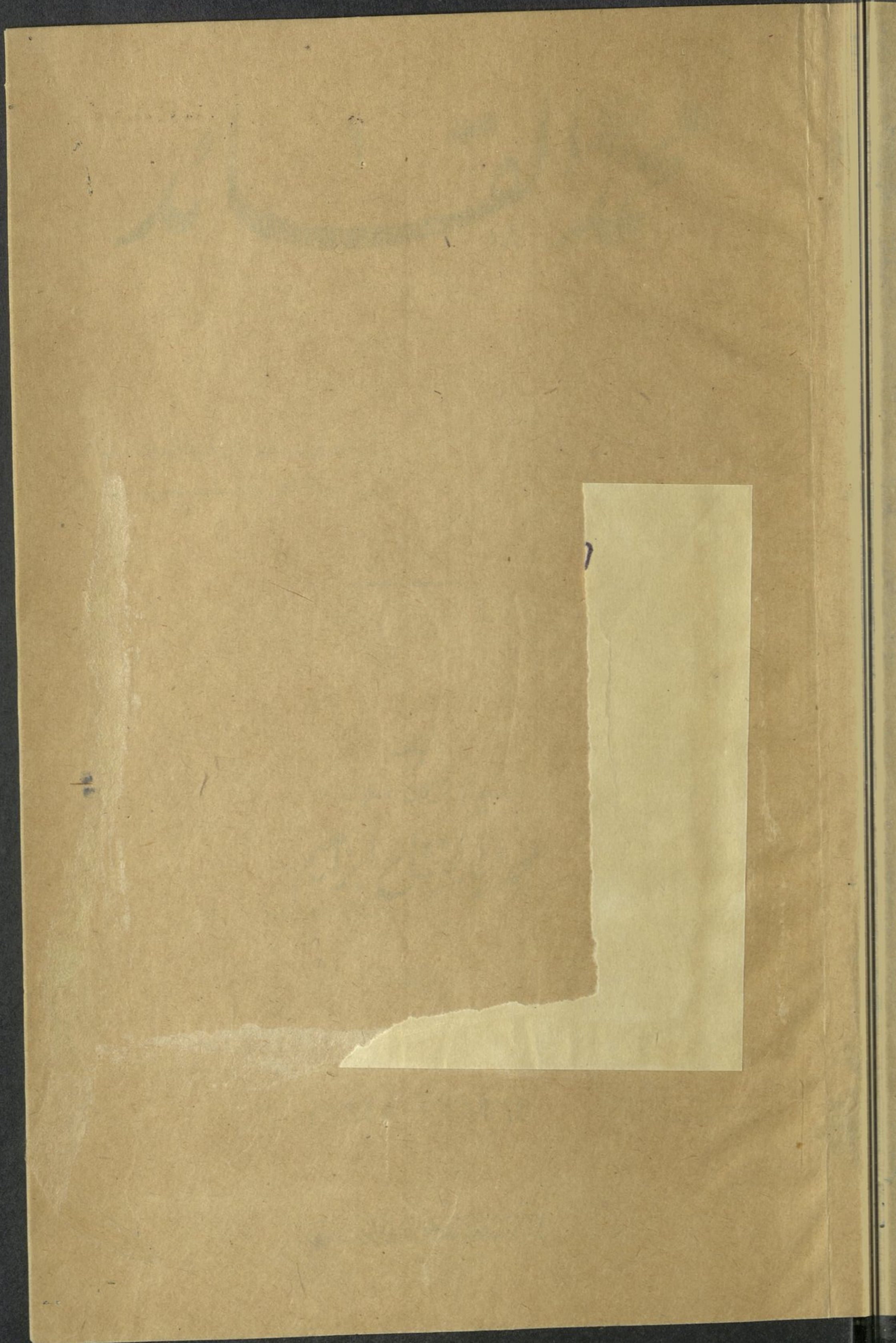




محمد صلى الله عليه وسلم القائد

[بحث فى غزوات النبي عليه الصلاة والسلام
من ناحيتى القتال والتخطيط للحرب ...]

تأليف
الصاغ (أركان الحرب)
محمد عبد الفتاح ابراهيم



١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر



الاهداء

إلى جنود الإسلام فى الشرق العربى

أهدى هذه الصفحات ، مقدما إياها مع قول البوصيرى فى بردته :

ومن تَكُنْ بِرَسُولِ اللهِ نُصْرَتُهُ
إن تَلْقَهُ الأُسْدُ فى آجامِها تَجِمِ

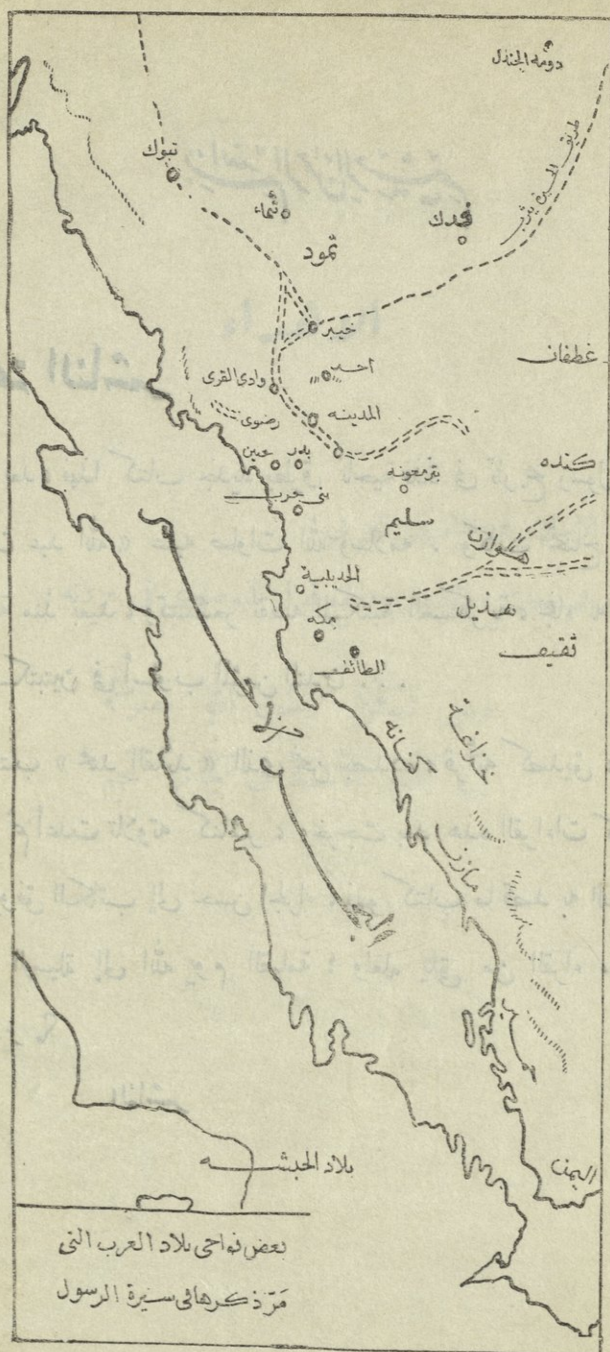
بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

أما بعد ، فهذا كتاب جديد يطرق ناحية فذة فى تاريخ رسول رب العالمين « محمد بن عبد الله » عليه صلوات الله وسلامه . وكانت تحتاج إليه المكتبة الإسلامية منذ بعيد ، وتستشعر نقصه المكتبة العسكرية ، فجاء به مؤلفه ليكمل حاجة المكتبتين فى أسلوب المؤمن المتدين . . .

وكتاب « محمد القائد » الذى نحن بصدده ، قرأته كصديق ، وعدت إليه كمسلم ، ثم أعدت تلاوته كناشر ، وخرجت بعد هذه القراءات كلها وأنا أرجو الله أن يوفق الكاتب إلى حسن الجزاء ، فهو كتاب ما قصد به الدنيا ، ولكن قصد به الوسيلة إلى الله يوم القيامة ؛ ولعله يلقى من القراء ما هو أهل له من التقدير ؟

الناشر



بعض نواحي بلاد العرب التي مر ذكرها في سيرة الرسول

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

لا تزال وستظل سيرة الرسول عليه صلوات الله وسلامه مرجعا لكل وارد للبحث، ومحجا لكل قاصد للدرس، ذلك لأنها جمعت أروع صور الحياة، وأبلغ الدروس والعظات، فكان لزاما أن تكتب كل ناحية من حياة الرسول الكريم فى ضوء الفن الذى كانت له، وكان لزاما فى هذا القرن الذى بعث فيه مجد الإسلام والمسلمين أن تكتب غزوات النبى — أولى المعارك الإسلامية الخالدة ما بقيت الدنيا — فى ضوء أحدث ما وصل إليه العالَم من فنون القتال، و إن عز المرجع، وصعب التحليل ... لأن كل من كتبوا سيرة محمد عليه الصلاة والسلام فى أقرب العصور لوفاته، أو أدناها منا، بهرتهم عظمة النبوة، فأغفلوا الناحية الفذة من جهاد النبى، ولعلهم لطبيعة نصيبهم من الحياة لم يستطيعوا أن يبرزوا العظات الفنية من الناحية العسكرية فى المعارك التى خاض المسلمون الأولون غُمارها.

ثم كان كتاب « حياة محمد » للأستاذ الكبير الدكتور محمد حسين هيكل باشا فأفاض وأطنب فى وصف الغزوات، ولكن أستاذنا هيكل قد عنى العناية كلها بالدفاع عن نظرية القتال من وجهة الدين، ومن ناحية تشريع القرآن الكريم له، وبالرد على المستشرقين والمبشرين، وهو نقاش أحسن الله جزاءه عليه. وجاء بعده كتاب « عبقرية محمد » للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد، فأفرد فيه فصلا عن عبقرية محمد العسكرية، وتحدث مصورا تطبيق بعض الأصول العامة فى فن الحرب والقيادة.

وفى ليلة من ليالى الشتاء فى فجر عام ١٩٤٣ كنت أعمل فى هيئة أركان الحرب للقوات المصرية بمنطقة قنال السويس، وكانت ليلة شديدة البرد، وقد تركت عملى فى أول الليل مجهدا، ورحت أتلمس الدفء وأنا أقرأ فى غرفتى كتاب « حياة محمد »، ولعلها كانت المرة الرابعة التى كنت أقرؤه فيها، وعلى ما أذكر كنت قد وصلت إلى غزوة أحد.

وفجأة حمل الهواء أزيز طائرات القتال ، وعلا صوت الإنذار بغارة جوية على منطقة القنال ، فأسرعت والكتاب ما زال فى يدى إلى غرفة العمليات برياسة المنطقة ، حيث يجتمع أركان الحرب المنوبون للعمل طوال إغارة الطائرات ، وكنت أتتبع مع زملائى من الضباط البريطانيين الطائرات على مصورات كبيرة ، وأنا أختلس النظر إلى صفحات الكتاب من وقت لآخر ، فلما خلت السماء أو كادت من الطائرات ، التفت إلى صديق إنجليزى فسألنى عما أقرأ ، فترجمت له بضع فقرات من الكتاب ، فسألنى « هل يوجد كتاب يتحدث عن هذه المعارك الفذة ، مع مقارنتها بأصول القتال فى هذا العصر الحديث ؟ »

قلت : لا ! ... ثم صمت برهة ، وقلت : ولكنى سأحاول كتابته ، لو كانت فى العمر بقية .

واشترك الجميع فى الحديث عن معركة أحد ، وما يمكن أن يكون فيها من دروس تتفق وأصول فن الحرب الحديثة .

وأصبحنا مفترقين وقد نسى الجميع ما دار من حديث ، وخرجت وأنا لا أزال أفكر فى الأمر ، فلما عدت إلى غرفتى كان أول ما عملت أن جمعت بضعة أوراق بعضها إلى بعض ، وكتبت فى أولاها « محمد القائد ... بحث فى غزوات النبى من ناحيتى القتال والتخطيط للحرب » ، ثم بدأت متمهلا أخط السطور بعضها فى إثر بعض ، فإن كنت تأخرت فى إخراج هذا الكتاب ، فلأننى كنت أخشى مواطن الزلل ، ولأننى كنت أود أن أصل به إلى مرتبة الكمال ، باعتباره صورة مقتبسة من حياة الرسول الأكمل ، والقائد الأعظم .

ولعلى أكون قد وصلت إلى شىء من هذا ؟

محمد عبد الفتاح ابراهيم

صاغ أركان الحرب

— ١ —

الحرب وضرورتها

تشريع القتال فى الاسلام.
من يقاتل — كيف يقاتل
ومتى يقاتل.
معنى قتال قريش

يبعث الله الأنبياء والرسل لهداية الناس وما كانوا ليهتدوا إلا أن يشاء الله ، وبعث محمدا نبيًّا مرسلا مبشرا ونذيرا

« وَانْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِين * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِين » (الشعراء ٢١٤ — ٢١٥) « وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِين » (الحجر ٨٩) « فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِين » (الحجر ٩٤).

بعث محمد للعرب وهم يعبدون الأصنام من دون الله ، أمة جمعت فصاحة اللسان وشجاعة القلب ، تستهوى الفرد سطور من النثر ، أو أبيات من النظم ، وتملك فصاحة اللغة عليه قلبه وجنانه . اجتمعت بسطة الأرض ، وترامى الأطراف ، ووحشة الطرق ، ووعورة المسالك ، بفصاحة اللغة وروائع الأخيلة ، فكان لهذا كله أثره فى حياة الفرد الذى يكوّن الجماعة ، جعله كل هذا محاربا منذ أبعد العصور ، يقاتل إذا استحث ، وإذا نفر نفر الناس معه ، فهم أهله وعشيرته ، يقاتل الفرد وتقاتل القبيلة معه للذود عن حياض جاره ، أو لدفع عاره ، ولكنهم مع هذا العنف يقدرون الأمين الصادق الوفى العف اللسان واليد ، ويعرفون للخلق الكريم النبيل مكانته ، فبعث القرآن معجزة اللغة ، وكان محمد عليه الصلاة والسلام معجزة الأفراد .

كان محمد من شعب عرف القتال وخبره وألفه ، وعاصر أزهى عصور الرومان والفرس ، وصحب تقدم كل من الدولتين للغزو والفتح ، واشترك مع كل فى نطاق مشترك من الحدود

السياسية ، وكان من الممكن أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام محاربا يألف الكفاح والقتال ، ولكن ما كان الله ليبعث رسولا سفاكا للدماء يقاتل للفتح والاستعمار ، أو الكسب ، فالدعوة الدينية توجيه للخير ، ويجب أن يعمل النبى طاقته ، بل وما وراء طاقته بهداية الله وعضده لنشر الدعوة ، والدعوة لا طريق لها غير الإقناع ، وقد أكثر القرآن من القول بأن طريق الدعوة هو الإقناع وحده ، « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » (البقرة ٢٥٦) .

فلما مرت السنون يجر بعضها بأذيال بعض وقريش تمعن فى الاستخفاف بالدعوة للدين الفتى ، وتبالغ فى التنكيل بالمسلمين ، أطاع النبى أمر ربه ، فهاجر إلى المدينة « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِين » (الأنعام ١١) ، وما كان لقريش أن تسكت عن هجرة النبى وأصحابه ، فلما لاحقته ولاحقتهم بمكرها : كان هذا العمل من المشركين حدا من نشر الدعوة ، واعتراضا على نشرها : وهدما لأسسها وأركانها ، ولهذا كان الواجب هذه المرة لا أن تقرع الحجة بالحجة ، ولا أن يدفع الاعتداء بالأناة والصبر والهداية ، بل أن يقاتل النبى لنشر الدعوة لهداية الناس ما دام لم يعد من القتال بدّ .

و إذن فليقاتل محمد ولكن لله ، وليقاتل حتى وحده « فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا » (النساء ـ ٨٤) .

فالقتال إذن للدين . . . والدين لله « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (الأنفال ـ ٣٩) .

وكان إذن الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم بالقتال من أجل دين الله وفى سبيله بداية عهد جديد فى التاريخ الإسلامى ، بل ومسئولية جديدة للنبى ومن يجيئون بعده ، يقول ابن خلدون فى مقدمته « والملة الإسلامية لما كان الجهاد فيها مشروعا لعموم الدعوة ، وحمل الكافة على دين الإسلام طوعا أو كرها ، اتخذت فيها الخلافة والملك لتوجه الشوكة من القائمين بها إليهما معا » .

تشريع القتال فى الإسلام

وللقتال أيضا أصوله التشريعية التى تقوم على أساس الدعوة الدينية لا على أصول الحرب ، فلا مباداة ولا اعتداء ... « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » (البقرة ـ ١٠٩) .

و إذن فقد كتب على محمد القتال لأنه أمر لا تنتشر الدعوة إلا به ، على شريطة أن لايبدأ أناسا بالاعتداء والقتال ، وقبل النبى القتال وهو كاره « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ » (البقرة ٢١٦) وما عليه فى هذا الكره من بأس و إن كان لزاما عليه أن ينفذ الأمر « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » ، وليس هذا وحسب ، بل « وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »

ولكن من يقاتل ....؟!

ثم كيف يقاتل ؟!

فإذا قيل ولكن من يقاتل ؟ فإنا نجد القرآن الكريم نفسه يوضح هذا فهو يتحدث فى أكثر من مكان عن المشركين الذين يصدون عن سبيل الله ، فلما قصد قريشا بدا أن قريشا لن تسكت عن قتال المسلمين ، فهى الخصم الأول « وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا » .

على أن هذا الأمر من الله سبحانه وتعالى بالقتال إنما جاء بعد تفكير المهاجرين من أصحاب النبى أنفسهم فيه ، ورغبتهم فى إيذاء قريش فى رزقها ، قريش التى آذتهم وشردتهم وأخرجتهم من ديارهم مغتصبة منهم أموالهم ، وحالت بينهم و بين أسرهم ، فلم يكن إذن التفكير فى القتال إلا بعد استقرار المسلمين فى المدينة ، وتبدو هذه الحقيقة من أن كل الآيات التى نزلت فى الجهاد وتشريعه نزلت فى المدينة .

ولو فكر محمد فى القتال قبل هذا لكان لزاما أن يفكر فيه يوم أن اشتد إيذاء قريش له وللمسلمين ، أو يوم أن أرغموهم على هجرة بلدهم وترك مالهم ، ولكن ما كان من الممكن

يومذاك أن يثير المسلمون حربا دفاعية على قياس أن يعاونهم فيها الأنصار ، فقد بايعوا النبى على حرب الأحمر والأسود من الناس ، ولكنهم قالوا يومذاك (يارسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا ، نمنعك ما نمنع منه أبنائنا ونسائنا)

على أن النبى لم يفعل ولم يفعل المسلمون ، لأن النبى لم يكن قد أمر بالقتال بعد ... بل ولم يكن المسلمون يستطيعون هذا حتى لو أرادوه ، لأنهم كانوا قلة سواء فى مكة أم فى غيرها وما كانوا يستطيعون أكثر من القيام بدفاع سلبى فى هذا القتال .

كيف يقاتل ؟!!

والواقع أن النبى عندما جاءه إذن ربه بالقتال لم يكن يملك أن يثير حربا على قريش ولكن كان فى استطاعته أن يكون منها على حذر ، وهنا بدت الحاجة إلى أن يدرك الكثير من أنبائها ، وأن يكشف الطريق إلى معقل المشركين مكة ، وأن يدرك مواعيد قوافلها ، ولهذا كانت هذه السرايا « البعوث » التى خرج النبى فيها أو تخير لها رجالها بدله ، ولا شك أنها قد جاءته بالكثير من المعلومات النافعة ، كما أبقت قريشا ومن ذهبوا مذهب شيوخها من الشرك و إيذاء المسلمين حذرين يخشون هذه القوة الفتية التى جاء بها الدين الجديد .

متى يقــاتل ؟!!

وللعرب قانون غير مسطور لمواقيت القتال والحرب ، وهناك أشهر حرم لا يحدث فيها قتال ، ولم يكن يجوز فيها إراقة الدماء ، فهل للنبى أن يتقبل هذا العرف على أنه قانون ، وهل له أن يتبع تقاليد الجاهلية الأولى فى القتال باعتباره عربيا يجب أن يخضع للعرف الذى تداولته القرون ، والله إنه ليتقبله ما دام أمر الله لم يبدل من هــذا العرف ، فلما كانت بعثة عبد الله بن جحش إلى «نخلة» بين مكة والطائف ، فى الأيام الأخيرة من رجب للعام الثانى للهجرة ، وسقط عبدالله ومن معه على عير لقريش ، فقتلوا أحد حراسها ، وأسروا اثنين ، وغنموا العير بما فيها ، تاركين من استطاعوا النجاة ليفروا إلى قريش بمكة ، ليملئوا الدنيا صياحا بأن المسلمين قد قتلوا وأسروا وغنموا الأموال فى ختام الشهر الحرام .

ولم يرتح النبى لهـذا فهو قد بعث عبد الله بن جحش أصلا ، ليقتص أخبار قريش ، وما أمره أن يقتل أو يأسر أحدا فى الشهر الحرام ، وقد حاول بعض أن يقولوا بأن هذا قد حدث لافى خاتمة رجب بل فى غرة شعبان ، ولـكن كانت كلمة الله هى العليا ، فنزلت الآية الـكريمة « يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَـكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِـكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا » (البقرة ـ ٢١٧) .

وهكذا حدد تشريع القرآن للنبى أن يقاتل فى سبيل الله وفى سبيل الدعوة لدينه ، أن يقاتل المشركين أينما كانوا وحيثما حلوا ، وأن يقاتلهم فى كل وقت ، ولاحرج عليه . . .

معنى قتال قريش

فهل كان معنى قتال قريش إرغامها على الإسلام ، وهل كان القصد من هذا أن يجد أهل مكة أنفسهم بين السيف والنطع ، فإما الإسلام وإما الموت ، اللهم فاشهد أننا لانرى هذا الرأى ولا نقره ، فما كان محمد عليه الصلاة والسلام يطمع فى حمل قريش بحد السيف على الخضوع لدين الله ، ونبذ عبادة الأصنام ، والانضواء تحت لواء الإسلام ، فما كان السيف وسيلة للإقناع ، ولا هكذا أراد الله لدينه أن ينتشر بين الناس ، وقد بعث الله محمـدا عليه الصلاة والسلام رسولا مبشرا ونذيرا للأمم كافة ، وليست قريش هى كل الدنيا ، وإذا دانت له قريش فما هى كل العرب الذين كان يجب أن ينشر النبى بينهم تعاليم الدين الجديد أولا قبل أن يخرج للعالم المعروف ، الضارب على أطراف الجزيرة وحواليها .

وإنما كان قتال قريش قتال الفئة الباغية حتى تتفتت هذه العقبة الـكئود التى تقف فى سبيل الدعوة للدين الجديد بما تناصب المسلمين من عداء ، وما تنشره بين جموع الحجيج الذين يفدون إلى البيت الحرام فى موسم الحج كل عام من أراجيف عن النبى وعن دين الله ، أو على الأقل قصد لإفهام قريش أن فى مصلحتهم التفاهم مع المسلمين تفاهما يمنع تفاقم

الشر بين الطائفتين ، ويترك المسلمين أحرارا فى الدعوة إلى الدين ، ويترك السبيل مفتوحا لمن شاء الإسلام أن يسير إلى المدينة أو أن يظل بمكة .

هذا هو معنى قتال قريش ، وقريش هم سادة العرب ، ولهم الصدارة منذ أبعد العصور ، وهذه هى الحكمة البالغة فى الابتداء بقريش دون باقى العرب ، والذى يرجع منا إلى المطولات التى تحدثت عن سيرة النبى الكريم يجد تأثير الابتداء بقريش ، والانتصار الذى حصل عليه المسلمون يوم بدر ، فى انتشار دين الله بين قبائل العرب ، وفى فسح الطريق للمسلمين والاسلام . . .

— ٢ —

بعض النواحى الفنية

فى غزوات الرسول

وفى الحديث عن غزوات النبى ، وهى المعارك الإسلامية الأولى يجب أن نقدر أننا لن نجد « العامل الهجومى » كأصل من أصول الحرب ، فكأنها إذن كانت معارك الأصل فيها هو « العامل الدفاعى » ، ولكنها معارك دفاعية فى أحدث صورة لأنها تستند إلى الهجوم وإن كان قد انتزع منه عامل المباداة بمعناه اللغوى ... على قياس أن هذه المباداة حتى فى هذه العمليات المحلية ستكون نوعا من الاعتداء .

وعلة هذا أن الإسلام لم يكن دين قتال ، بل كانت المعارك كلها وسيلة إلى الدعوة إلى الإيمان ، دعوة إلى نظام دينى جديد ينسخ نظاما قائما على الباطل ، وما دام هذا الباطل قد مرت به دهور كثيرة فلا يمكن أن ينسخ إلا بالقوة .

ثم مسألة أخرى يجب ألا نغفلها فى هذا الحديث ، وهى أن النبى (قد نظر إلى الحرب نظرته إلى ضرورة بغيضة يلجأ إليها ولا حيلة له فى اجتنابها ، بل و يتجنبها حينما تيسرت له الحيلة الناجحة) .

وسنجد فى هذه المعارك وحتى فى السرايا القليلة الأفراد وما إليها من مناوشات قليلة الأمد ، صورا رائعة نخرج منها بدراسة واسعة ، توضح إلمام القائد المسلم الأول بالكثير من أصول « التكتيك » و« الأستراتيجية » ، إلماما جاء عن الفطرة لا التعليم ، وعلى البديهة لا نتيجة لدرس معارك من سبقوه من قادة القرون الأولى ، وسنستطيع أن نقدر إدراك النبى عليه الصلاة والسلام لأهمية عامل الحركة فى العمليات ، أهمية العمل على خطوط المواصلات

والتموين ، أهمية الوقاية بحماية مؤخرة المواقع الدفاعية . . . مع نوع من الدفاع الشبكى ضد قوات العدو الخفيفة الحركة وفرسانه ، أهمية العناية باستقاء المعلومات من الاستكشاف بالأطواف واستجواب الأسرى ، ثم أهمية الاحتفاظ بسرية الأوامر والترتيبات للمعركة ، وسنقف بعد هـذا طويلا بإزاء روح القيادة وأثرها فى الأفراد ، ومدى تفهم النبى لشتى أصول الحرب ، وضروب القتال .

وسنرقب أيضا صورة فذة لقيادة جيش ديمقراطى إلى أبعد حدود هـذه الكلمة من معنى ، فسنجد القائد المسلم الأول إذا اعتزم أمرا جمع خاصة جنده وعامتهم ، ثم شاورهم فى الأمر ووازن بين شتى الاتجاهات والخطط . فإذا انتهى إلى شىء أقدم عليه لا يرهب خطرا ، ولا يخاف صعبا ... « وما كان لنبى إذا لبس لأمته * أن يضعها حتى يقاتل » .

وسنجد القائد المسلم الأول لا يهنأ بما يعد من تدابير لوقايته الشخصية . . . بل نراه يجول بين صفوف جنده ، وبذلك يستطيع أن يكون ملما إلماما تاما بالموقف ، كما نراه فى أخطر المواقف وأحرجها مثيرا للهمم مشجعا على القتال ، محرضا على الثبات والتماسك ، وبذلك يثير روح الحماسة فى الأفراد ، فيمدهم بالعزم من بريق عينيه ، وهذه الحماسة التى تجىء من الإيمان ومن روح الرسول القوية هى أولى العوامل التى أدت إلى النصر .

(*) اللأمة : الدرع .

سرايا النبى

وبدأت صورة النبى المجاهد تبدو للضوء .

بدأت فى العام الثانى للهجرة (١) . ذلك لأن محمدا بعث رسولا للناس لنشر الدين ، وقد حاول محمد هـــذا . . حاوله باللين والرفق والنصح والإرشاد والزجر والتحذير يوم أن كان فى مكة ، فلم يصل إلى كثير ، كان لايستطيع أن يأخذ أحدا بالعنف إذا ما آذى المسلمين أو صد عن الدين أو حرض على المؤمنين ، وكان محمد يخشى على الحفنة الأولى من المسلمين ، فلما هاجر إلى المدينة وأمن المقام وكثر له الأنصار بات لزاما عليه أن يعمل شيئاً لنشر الدين . وهو ملزم على أن يدعو للإسلام وأن يحض على ترك عبادة الأصنام ، وهو من أجل هذا يجب أن يفعل شيئا إيجابيا فى سبيل هـذه الدعوة ، فالدين يحارب الوثنية فليحارب هو إذن عبادة هذه الأصنام .

وما فكر فيه محمد عليه الصلاة والسلام كان قد فكر فيه أيضا المهاجرون ، فلكل منهم قصة فى احتمال الأذى ، وقد شغل المهاجرون حينا بإعداد مساكنهم ولـكنهم قد انتهوا منها . ووجب العمل إذن لله ، وفى سبيل الله .

---

(١) أذن الله تعالى لمحمد عليه الصلاة والسـلام بالقتال لاثنتى عشرة ليلة مضت من صفر فى السنة الثانية للهجرة ، وكانت أول آية أنزلت فى الاذن بالقتال « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ » (الحج ـ آية ٣٩) ، وقد نزلت بالمدينة فى الوقت الأليق للقتال ، لأنه لو فرض الجهـاد على المسلمين وهم قلة بمكة لما قامت للمسلمين قائمة ، راجع تفسير البيضاوى لمصحف الحافظ عثمان صفحة ٤٤٥

كيف يبدأ محمد القتال ؟

أيجمع المسلمين — وهم قلة فى العدد — فيسير بهم للقاء قريش ! أيمكن هذا ؟ ! فإن فعله فهل — ينجح وهل ينتصر ؟ ! ! وقد يمكن أيضا أن يهزم وأن يرتد إلى المدينة وقريش إن جاء أهلها فى إعقاب المسلمين سيضيقون عليهم الخناق ، وهم إن ألقوا بالأنصاب فى المعركة فربحوا الجولة الأولى فلن يقفوا حتى ينتهوا من هذا الدين وصاحبه ، والحرب مسألة تعرض لـكل الاعتبارات ، وهى ميزان تترجح كفتاه ، فلا يمكن تقدير أيهما تخف ، بل هى سباق غير مؤكدة نتيجته ، وتخضع لاحتمالات متباينة كثيرة ، ولهذا فليقاتل المسلمون ولـكن بعوامل معنوية ، وليقاتلوا لتعرف قريش أن هؤلاء المسلمين قوة ، وأن هؤلاء المسلمين الذين أخرجوهم من ديارهم وآذوهم فى دينهم يستطيعون القتال لو أرادوه ، وأن الرجوع إلى الله ونبذ الأصنام قد ملأ قلوبهم بالايمـان ، وأن هذا الإيمان قد أوجد فيهم روحا معنوية جارفة تؤهلهم للانتصار .

السرايا الأولى وفـكرة مناوشة قريش

وما دام سيقاتل فليناوش قريشا وليناوش العرب ، ولـكن فليناوشهم فرادى أولا وليداورهم من مرمى بعيد لاختبار قوتهم ولإدراك مدى إستعدادهم للقتال أو اعتزامهم على خوض غماره ، وليكن عمله كتراشق المدفعية البعيدة المدى اليوم لاختبار قوى التحصينات ، ولهذا فليرسل سراياه لتقص آثار أهل مكة ، الخصم الأساسى للاسلام والمسلمين ، وليضرب على خطوط متاجرهم إلى الشام ، وتجارة قريش إلى الشام هى مورد الحياة الوحيد لقريش و بغير المال وعزته ومنعته لا تقوم لقريش مهابة ولا جاه .

وخرج حمزة بن عبد المطلب إلى (العيص) على شاطئ البحر فى ثلاثين راكباً من المهاجرين دون الأنصار ، فلقى أباجهل بن هشام فى ثلاثمائة راكب ، وتأهب المسلمون للقتال ، فحجز بين الجمعين مجدى بن عمرو الجهنى ، فانصرف القوم دون قتال .

وخرج عبيدة بن الحارث إلى وادى رابغ فى الحجاز فى ستين راكبا من المهاجرين كلهم فلقى أبا سفيان على رأس مائتين من قريش ولم يتقاتل الجمعان و إن كان سعد بن أبى وقاص قد رمى يؤمئذ بسهم فكان أول سهم رمي فى الإسلام .

وخرج سعد بن أبى وقاص إلى أرض الحجاز فى نفر قليل ، وصل إلى العشرين فى بعض الأقوال ، وإلى مادون ذلك بكثير فى رأى آخرين ، وفى هذه المرة أيضا كان القوم كلهم من المهاجرين ، وقد عاد المسلمون دون أن يصيبوا شيئا مما خرجوا له .

ولكن هذا لا يكفى ؟

فليخرج محمد أيضا ليعرف الناس أن النبى الزعيم ، النبى القائد ، لا يقعده عن القتال شىء ، وأنه كفرد يجب أن يحتمل نصيبه أيضا من الكفاح للدين .

وخرج محمد عليه الصلاة والسلام إلى (ودّان) ، لا يريد قافلة ، بل يريد رجال قريش أنفسهم . ولكنه لم يلقهم .

وخرج النبى إلى (بُواط) ، يريد قافلة عليها أمية بن خَلَف ، ففاتته ؛ لأن المحاربين الذين يحمونها قد اتخذوا بها طريقا غير طريق القوافل .

وخرج عليه الصلاة والسلام إلى (العُشَيْرة) من بطن ينبعَ ، فى أكثر من مائتين من المؤمنين ، وبقى شهرا وبعض الشهر ينتظر قافلة عليها أبو سفيان ففاتته ، ولكنه كسب موادعة بنى مُدْلِج ومن يحالفونهم من بنى ضَمْرة .

ثم خرج إلى وادى سَفَوان من ناحية بدر ، لإدراك كُرْز بن جابر الفِهرى بعد إغارته على إبل المدينة ، ولكن فاته كرز ولم يدركه ، ويقول بعض الناس عن هذه الغزوة التى لم تتم « غزوة بدر » قائلين عن الأخرى إنها غزوة « بدر الكبرى » .

وفى كل هذه السرايا فاتته قوافل قريش أو كادت ، ولكن لم يحدث قتال ولم يُهرق دم ، ولا يمكن أن يكون قد قصد بهذه السرايا قتال قريش بجمعها ، بل إنه لم يقصد هذا إطلاقا فلم تكن أية جماعة من الجماعات التى خرجت مع النبى أو مع غيره ، بقادرة على القتال حتى لو أرادته ، فهى من ناحية القوى العديدة ضعيفة لا تقوى على الاصطدام ، وهى إن صلحت لقتال الساقة مرتدة إلى المدينة ، لا تصلح لقتال هجومى ، لاسيا إذا لاحظنا أن قوافل قريش قد زيد فى حراستها منذ أن هاجر محمد عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، ومنذ أن حالف القبائل الضاربة حولها ووادعها .

ولا يعرف على التحقيق عدد السرايا التى وجهها رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولكنها أحصيت فى رأى بعض مؤرخى السيرة ، فكانت سبعا وأربعين ، خرج النبى بنفسه فى أربع منها على التحقيق ، وقد وصل النبى إلى تحقيق الكثير من أغراضه ، فعمل على نشر الدعوة الدينية ، وأقض مضجع قريش ، وهدد طرق مواصلاتهم ، وهادن كثيرا من القبائل التى على الطريق بينه وبين قريش ، فأمن شرها ، وضمن عدم معاونتها قريشا لو بدأ القتال .

ولا يمكن أن يكون القصد نهب تجارة قريش استخلاصا لأموال المهاجرين ، ولو أراده لكان النبى قد أرسل قوات أكبر مما أرسلها فى هذه السرايا .

السرايا وفن الحرب :

وإذن ما النظرة الفنية لهذه السرايا ؟

الواقع أن التقدير الصحيح لهذه السرايا هى أنه قصد بها أساسيا :

١ — إعداد قوات تطوف ما بين المدينة ومكة للكشف ، حتى لا تؤخذ المدينة على غرة .

٢ — العمل على الاقتراب من قريش فى عقر دارها ، بإغارات صغيرة سريعة ، تعمل على خطوط مواصلات قريش إلى الشام .

وبذلك يستطيع المسلمون أن يحصلوا من قريش على « السبق فى العمل » ، وهو عامل لازم فى الدفاع الهجومى ، هذا عدا أن رجال قريش سيرهبون جانب المسلمين . وقد نجد مثالا لهذه السرايا فى الدوريات الإنجليزية الخفيفة الحركة ، التى كانت تعمل داخل أراضى برقة . من غداة إعلان إيطاليا الحرب فى العاشر من يونيه عام ١٩٤٠ .

وقد ربح محمد عليه الصلاة والسلام من سراياه فى العام الأول للهجرة ما جناه البريطانيون من الدوريات البعيدة المدى فى عام ١٩٤٠ للميلاد ، واستطاع المسلمون أن يبقوا قريشا على حذر ، فحراس القوافل وقادتها يتوقعون لقاء المسلمين فى كل لحظة ، يخافونهم إذا انبلج الصبح أو اقترب الليل ، كل غبار يتطاير من وراء الأفق يظنون فيه الظنون ، وكل همس فى الليل يقدرون أن وراءه الموت ، وهذا الاستعداد الدائم للحرب يثير

الأعصاب وهو أشد إجهادا من القتال ، وكان فى هذا كسب معنوى للمسلمين ، وكانت هذه السرايا تعود فى كل مرة بمعلومات قيمة عن نيات قريش ، ومايعدونه للمستقبل القريب فهى إذن نوع من الاستكشاف فى قوة تصلح على الأقل لاحتجاز حُماة القافلة عن القتال لو شاءوه ، والاكتفاء بالانصراف بالعِير وما فيها من مال وتجارة فى لهفة ، لإدراك السلامة والنجاة ؛ وكان لهذا الفزع صداه فى أهل مكة .

ولعل النبى أيضا قد قصد تهديد قريش فى تجارتها ، وإذا كان هـذا فقد أدرك غرضه ، إذ أرغمت قوافل قريش على تجنب الطرق المسلوكة منذ أبعد العصور ، وراحت تتنكب فى سبل وعرة عبر الصحراء حينا ، ومساحلة البحر حينا آخر ، وفى هذا خسارة لقريش من مال وجهد ووقت ، ولكن مهما قلت قيمة هذه الخسارة المادية ، فهى شىء جديد لم تألفه قريش ، ولم تعرفه منذ كانت مكة وكانت الشام ، ولم يهدد الأكاسرة تجارة قريش ، ولم تستطع حتى قبائل البادية مجتمعة أن تهدد تجارة قريش ، برغم طمعها فى مالها ومجدها ، وإذن فلعل أهل مكة يسعون للتفاهم مع المسلمين ، استخلاصاً للقوافل من هذا التهديد .

فإن لم يصل إلى هـذا بدرجة مرضية فلا أقل من مُوادعة القبائل التى على طريق قوافل قريش ومحالفتهم ، وسيزيد هذا من حرج أهل مكة .

على أن الشىء الأهم هو إرهاب اليهود الذين يقيمون فى المدينة ؛ فسيدركون أن فى المسلمين قوة ، وأن ما يفعلونه خارج المدينة يمكن أن يفعلوه داخلها ، وإن كان اليهود أصلا ما فكروا قطّ فى مصارحته بالعداوة والقتال ، لأنهم لايخشون شيئا أكثر مما يخشون على تجارتهم أن ترتبك إذا قامت فى المدينة يوما ما حرب أهلية ، وهم لهذا يعملون للدسّ بين المهاجرين والأنصار ، ولإيقاظ الأحقاد القديمة بين الأوس والخزرج منذ أول عهد المسلمين بالاجتماع فى المدينة ، وقد فعلوا هذا سرا لا علانية ، ولكن لاشك أن مايفعلونه سرا يمكن أن يفعلوه علانية يوما ما ؛ ولم يغب هـذا عن النبى وإن كان لم يشأ أن يبدأ بالقتال فى داخل المدينة ، وسنرقب تأثير اليهود فيما حدث بعد بدر ، ثم ما تطور إليه بعد أحد .

ثم جاء رجب فى السنة الثانية للهجرة ، وبعث محمد عليه الصلاة والسلام بسرية عبد الله بن جحش ، فكانت هـذه السرية مفترق الطريق بين الاستكشاف بقوة والقتال ، فقد بعث النبى عبد الله فى نفر غير كبير إلى نخلة ، بين مكة والطائف ، « لترصد قريشا والعلم بأخبارهم » ، ومرت عِـير لقريش عليها عمرو بن الحضرمى ، وكان من الممكن أن يعود المسلمون بهذا النبأ ، وكفاهم الله شر القتال ، ولـكنهم تشاوروا فى الأمر ، ثم شدوا على من فى العِير ، فقتلوا من قتلوا ، وأسروا رجلين ، ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله .

كانت هـذه السرية بداية مرحلة جديدة فى الصراع ، لا مع قريش وحدها ، بل مع كل من جرى مجرى أهل مكة فى الفتنة والصد عن سبيل الله ، ومحاولة رد المسلمين عن دينهم ، وليس هـذا فحسب ، بل ولا جناح على المسلم إذا قاتل من أجل هذا وقَتَلَ ، حتى لو كان هذا فى الشهر الحرام .

— ٤ —

بدر الكبرى

وإذن فقد جاء التشريع بالقتال ، التشريع الذى يقول بأن الصد عن الدين والفتنة أشد من القتل ، وأكبر عند الله ، حتى لو كان هذا القتل فى الشهر الحرام ؛ وكان هذا التشريع إيذانا للمسلمين بالقتال فى كل وقت وكل مكان . وقد جاء هذا التشريع فى وقته ، إذ بدأ المسلمون يفكرون فى أمر دينهم ثم دنياهم ، ويتذاكرون ما فعلته قريش ، فيذكرون أن لهم عليها كثيرا من الحقوق التى يجب أن تُقْتَصَّ ، وأنه من ألزم الأمور أن يستعيدوا من قريش أموالهم التى اغتصبتها منهم ، لا لشىء إلا لصدهم عن الدين .

وإذن فليقاتلوا وليتوكلوا على الله .

والواقع أن هذا التفكير فى القتال من أجل الدين وما يجىء على هامشه من أمور الدنيا كان عامًّا ، لا يقف به فرد دون فرد ولا جماعة دون أخرى .

وفى هذه المرة أيضا كان لزاما على محمد عليه الصلاة والسلام أن يعمل شيئا ، ولتكن عِير قريش هى المطلب ، وفيها صيد ثمين ، وليكن عمله سريعا وبجرأة . وعير قريش التى فاتته يوم أن خرج إلى العُشيرة ، قد انتهت من عملها بالشام فهى لابد وأن تكون فى طريق عودتها .

ولكن أين هى ؟ ومتى تجىء ؟ وأين تنزل ؟ وكم عدد من فيها من رجال ، ثم كيف يقاتلها ؟ .

وهنا تبدو للقائد المسلم الأول أهمية المعلومات التى هى أساس تقدير الموقف ، والعمود الفقرى لخطة القائد ، ولهذا فليستطلع خبرها أولا ، وليكن رسولاه للاستطلاع رجلين يثق بهما ، فيتعاونان معا على دفع الأذى ، ويتبادلان المشورة فى الرأى والعمل ، ثم إلى حدٍّ ما

بدر
رمضان العام الثاني للهجرة
طريق سير قافلة أبي سفيان
البحر الأحمر
إلى المدينة
العدوه الدنيا
عريش النبي
العدوة القصوى
مكان نزول قريش
الى مكة
١ ٢ ٣ ٤ كيلومتر

يمكن ضمان رجوع أحدهما على الأقل ، بما يمكن الحصول عليه من معلومات ، أو يرجع أحدهما و يظل الآخر فى مكانه يرقب ويتأهب .

وخرج طلحة بن عُبيد الله وسعد بن زيد إلى الحوراء ، فى انتظار أوبة عير قريش .

خروج محمـد

ولـكن قد يدرك الرجلان العير ، فيجمعان من المعلومات عنها الشىء الـكثير ، ثم يعود أحدهما أو كلاهما للنبى ، فتفلت العير ، أو قد يمسك بهما من فى القافلة من رجال قريش ، فلا يعودان لمحمد ؛ إذن يجب أن يخرج محمد عليه الصلاة والسلام أيضا ليتدبر الأمر بنفسه ، على مقربة من رجليه ، وكلما كان القائد قريبا من وحدات الاستطلاع الأمامية ، كان قريبا من ميدان المعركة ، و بذلك يمكنه أن يجمع أمره بسرعة لمواجهة كل أمر ، وأجمع النبى رأيه فخرج ، وخرج معه من المسلمين المهاجرين والأنصار ، ثلاثمائة رجل أو يزيدون على هذا بشىء قليل .

وخروج محمد وأصحابه للقتال ضد عامل الوقت ، وخفة الحركة هى العاملَ الحاسم فى هذا الضرب من القتال ، و إذن فلتكن فى المسلمين خفة حركة ، وكان مع المسلمين سبعون بعيرا ، و إذن فليعْتَقِب كل منهم ثلاثة ، يمتطى البعير أحدهم ، و يجد الباقيان خلفه ، وبذلك يجدّون ثلاثتهم فى السير ، وكان النبى وعلى بن أبى طالب ومَرْثَد بن مَرْثَد الغَنَوى يعتقبون بعيرا ، فكان حظ النبى كحظ سائر أصحابه .

الوقاية فى أثناء السير :

على أن المسلمين لم يسيروا فى جماعة واحدة ، ولو فعلوا هذا لأمكن القول بأنه قصد أن تكون من مجموعهم قوة ضرب قوية Striking Force ، ولـكن محمدا قد فـكر فى أنهم قد يلقون عدوهم فجأة وهم على غير أهبة للقتال ، أو قد يأخذهم عدوهم على غرة من الخلف ، وهم كلما بعدوا عن المدينة تقدموا فى أرض يسيطر عليها المشركون من قريش ، أو من يشابهونهم فى الصد عن دين الله و إيذاء المسلمين ، و إذن فلتكن فى مقدمة القوم جماعة

قيل كان على رأسها الزبير بن العوام ، ولتجئ فى أعقابهم أخرى تحرس مؤخرتهم عليها سعد بن معاذ وبذلك يمكن وقاية القوة الأمامية التى تجىء فى الوسط وفيها النبى (ص ٣٧٢ تاريخ الخميس ج ١).

ولسنا ندرى كم كان فى المقدمة ، وكم جاء فى الساقة (المؤخرة) ، حتى يمكن أن نقدر نظرة النبى إلى القوة اللازمة للحراسة ؟ ولكن الذى يعنينا أن المسلمين قد عرفوا المقدمة والساقة منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، وأن النبى قدر مسئوليته كقائد عن ضرورة وقاية قوته ، وتأمينها من المفاجأة فى أثناء السير ،ولسنا ندرى على التحقيق أيضاً التشكيل الذى تقدم به جيش المسلمين الأول ؛ ولكن لا ريب أنهم لم يسيروا فى صفوف متراصة ، كالتشكيل الذى كانوا يقاتلون فيه ، ولا فى جموع ، بسبب طبيعة الأرض الرملية المكشوفة ، التى كانوا يسيرون فيها منذ تركوا المدينة ، ولهذا لا جدل فى أنهم كانوا يسيرون فى تشكيل مفتوح ، لسرعة السير من ناحية ، ولأمن المفاجأة من ناحية أخرى .

خروج قريش

وكان . من فى العير قد عرفوا خروج المسلمين لاعتراض طريقهم وهم راحلون إلى الشام ، ولكنهم نجوا إذ ذاك ، لأن العير ، كانت قد أفلتت بمسيرة يومين كاملين . وأدرك أبو سفيان الذى كان على رأس العير أنه ولاشك ملاقى المسلمين عند أوبة العير إلى مكة ، وهو لا يستطيع أن يجازف فى معركة ما بحفنة الرجال الذين معه ضد المسلمين ، وترامى إلى أبى سفيان مثل ما بلغ المسلمين من أخباره ، فبعث على عجل من يستصرخ قريشا ، ويحشد قواتها للدفاع عن القافلة ، ومنع المسلمين من التعرض لها ، وليس فى مكة من لا نصيب له فى العير ، ولهذا ضمن أبو سفيان خروج قريش كلها .

وقد كان . . .

وخرج رجالات قريش كلهم ، ولم يقعد عن القتال إلا من أعجزه المرض أو الشيخوخة ، وحتى من قعد فقد بعث مكانه رجلا يقاتل .

ولعل الأقدار كانت تجرى فى أعنتها لتتم معركة بدر الكبرى ، فقد كان فى مكة من يدعو للقعود عن الخروج للقتال ، بأمل أن تمر العير دون أن يصيبها المسلمون ، وهؤلاء

كانوا يثقون بدهاء أبى سفيان ، وكان هناك فريق غير هؤلاء يرى القعود بفكرة أن بين قريش وكنانة دماء أريقت ، فإن خرجت قريش للقاء المسلمين ، فمن يضمن أن كنانة لا تهاجمها من خلفها ؛ وكاد هؤلاء وهؤلاء ينجحون فى توهين العزائم ، لولا أن ضمن سُرَاقة بن مالك بن جُعْشُم المدلجى من أشراف بنى كنانة ألاَّ تجىء كنانة من خلف قريش بشىء يكرهونه .

وخرجت قريش فى قرابة ألف مقاتل .

محمد القائد :

كل هذا والمسلمون يسيرون خلف مقدمتهم ، وتحمى ساقتُهم ظهورهم ، وهم يجدّون فى السير ، حتى لا تفلت القافلة ، وحيثما مروا تنسموا الأخبار عن العير ، وفى هذا السير نلحظ صورة من قيادة الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فمن ألزم الصفات للقيادة ، أن يتحمل القائد المشاق التى يحتملها جنوده ، وبذلك يكون له نصيبه من آلامهم ومتاعبهم ، والجندى بشرى قبل أن يكون مقاتلا ، فهو لا يحب الموت ، ولكن الذى يدفعه لمواجهته دون أن يخشاه ، هو أن يجد فى قائده القدوة الحسنة . فلا يجد بُدا فى أن يتبع هذا القائد إلى حيث يوجهه .

وهكذا كان محمد عليه الصلاة والسلام القدوة الحسنة لجنده فى كل وقت .

قد يكون للإيمان وللعقيدة أو للدين الفتى الجديد ، أثره فى قلوب المسلمين ؛ ولكن لا شك أن لقيادة الرسول أثرها الأكبر فى الأمر ، فقد كان هناك عامل روحى فى هذه القيادة ، هو شخصية الرسول نفسه . يقول جوستاف لوبون فى كتابه « روح الجندى » « نحن لا نقود جنودنا بالقوة أو الخوف بل بسيطرة العامل الروحى الذى نتصف به » . وجوستاف لوبون جاء فى عصر متأخر ؛ ولكن العامل الروحى هو هو لم يتبدل منذ أبعد العصور حتى اليوم .

***

يقول الجنرال ويفل فى حديثه عن القائد ، فى كتابه « القادة والقيادة » : « يجب أن

يكون القائد على « خلق » ، وأن يعلم ببساطة ما يريد ، وأن تكون له الشجاعة والعزم للحصول عليه و إدراكه ؛ ويجب أن يكون متحليا ومتفهما تماما لصفات «الإنسانية» ، المادة الخام التى يجب ألا تخلو منها بضاعته ، وأهم من هذا كله أن يكون فيه ما نسميه « روح الاقتتال » ، والصفة الأهم التى تميز بين القائد الجيد والقائد العادى : هى أن يكون متصفا بروح المخاطرة .

وأهم الخصال البشرية اللازمة للنجاح فى القيادة ، هى حبه للعدالة وحسن تقديره للأمور ، واستهانته بالأخطار التى قد يتعرض لها ، واستعداده لمشاركة رجاله فى آلامهم ومتاعبهم ، واتزانه وسيطرته على حواسه فى أحرج اللحظات ، كما يجب أن تتوافر فى القادة نظرة صحيحة ، ومعرفة تامة للمسائل الاجتماعية ، لأن الحرب مسألة اجتماعية أكثر من أى شىء آخر .

والأخلاق : وهى الناحية المعنوية التى تميز بين الرجال ، من ألزم الضروريات للقيادة ، فيجب أن يكون القائد قوى الخلق قويم الأخلاق » .

والواقع أننا لا نستطيع أن نقف بإزاء الرسول عليه الصلاة والسلام كرجل يجىء على رأس جند متغافلين إلى حين عن النبوة والرسالة ، إنَّ محمدا كرجل « لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم » ، وفى أية مرحلة من مراحل قيادته للجند ، سنجد صورة لامعة الأضواء والألوان لكل هذه الصفات اللازمة للقيادة الجيدة ، وسنلحظ خُلقه العظيم ، وسيطرته على حواسه فى أحرج اللحظات ، وعزيمته القوية وجراته سنلحظها فى بدر وفى أُحد وفى الخندق وفى حنين ، وحيثما التقى جمعان وكان المسلمون أحد الطرفين فيهما .

الشورى ومؤتمر التخطيط

وسار المسلمون يتلقفون أنباء القافلة ، وسار أبو سفيان يتنسم أخبار المسلمين ، وسارت قريش وكل من فى جمعها يفكر فى العير تفكيره فى المسلمين ، أما أبو سفيان فوصل إلى ماء بدر ، وعرف من آثار مناخ إبل عند تل يشرف على الماء ، أن المسلمين قريبون منه

فعدل عن الطريق مساحلا للبحر ،مسرعا فى سيره ، حتى بعد ما بينه و بين محمد ، ونجا بالعير ، ونزلت قريش وراء كثيب بالعُدوة القصْوى ، تتنطس الأخبار ، فعرفت بنجاة العير ، وأن محمدا على مرمى سهم منهم .

ووصل المسلمون وادى ذَفران ، فعرفوا بخروج قريش لملاقاتهم ، وهنا تغير الموقف ، فلم تعد المسألة عيرا يحرسها ثلاثون أو أربعون رجلا ، بل هذا حشد مكة كلها ، وبات لزاما على محمد أن يقدر الموقف لأول معركة جامعة فى تاريخ الإسلام .

ولعلنا لا نستطيع أن نصل إلى صورة تفصيلية لهذا التقدير ، فلم يهتم كتاب السيرة الكريمة إلا بحديث قصصى لحوادث الرسالة ونشر الدعوة ، ولكننا إلى حد ما نستطيع أن نتلقف منها صورة صحيحة الوضع ، وإن لم تكن دقيقة التفاصيل ، على أن تقدير الموقف هذا لم يقم به القائد المسلم وحده ، فى صحبة أركان الحرب له ، أمام مصورات توضح مسرح الحرب ، وإنما قام به القائد الأول فى جمع من المسلمين ، هم كل المهاجرين والأنصار ، الذين خرجوا معه من المدينة لثمان خلون من رمضان .

وفى مؤتمر التخطيط للمعركة Planning For Battle نجد مبدأ الشورى الذى جاءت به تعاليم الدين الإسلامى ، ولهذا يجب أن ندرك بأن تقدير الموقف الذى نسوقه فى هذه الصفحات ، إنما هو خلاصة آراء هذه المجموعة المقاتلة من المسلمين الأولين .

١ — الغرض : ولا يزال «الغرض» هو إدراك عير قريش بما فيها من مغنم ، وإن كان قد جاء ظرف جديد يسد الطريق إلى العير .

٢ — العوامل التى تؤثر فى إدراك الغرض .

فإذا انتقلنا إلى العوامل التى تؤثر فى إدراك الغرض ، وجدنا :

(ا) القوات المضادة

فالتسليح متماثل فى القوتين ، ولكن قريشا بلاشك لديها الأفضلية فى القوى العددية ، كما أن لديها التفوق فى خفة الحركة ، تبعا لكثرة عدد الفرسان فى جيشها .

(ب) الأرض والوقت والمسافة

وهذا كله ما أظن أن النبي عليه الصلاة والسلام قد قدّره في بدر ، وإن لم تكن مسألة المياه التي في آبار بدر قد غابت عن تفكيره ، لضرورة مواجهة قريش وفي يد المسلمين عين ماء يردونها للشرب .

٣ — طرق الحل المفتوحة لقريش

(ا) النجاة بالعير ، والعودة معها .

(ب) إنقاذ العير ، والوقوف للقتال تحرشا بالمسلمين .

ولا يمكن أن تنصرف قريش بجمعها هذا ، بعد أن خرجت في جمع لم تخرج فيه من قبل ، دون أن تقاتل المسلمين ، ولو على الأقل لتحسس قوة المسلمين بعد انضمام الأوس والخزرج إلى الدين الجديد .

٤ — طرق الحل المفتوحة للمسلمين .

(ا) إدراك العير مع مواجهة قريش كلها في معركة حياة أو موت .

(ب) ترك العير والعودة إلى المدينة .

وقد يكون الأمر الأول أقرب إلى الواقع حتى ولو بأحد شقيه ، ذلك لأن المسلمين لو عادوا دون قتال ، كانوا كقوة ضعفت عن مواجهة الخصم في ميدان المعركة ، بعد أن تأهبت للقتال ، فيجب أن يحتمل المسلمون إذن أذى اليهود ، كما احتملوا أذى قريش من قبل ، كما يجب توقع قيام قريش بمطاردتهم حتى المدينة ، بل ومهاجمتهم بها ، لوضع حد لهذا التهديد الذي يقض من مضاجع أهل مكة كلما خرجت لهم قافلة تقصد الشام ؛ ولو طاردت قريش المسلمين حتى المدينة فستكون قوة «المباداة» في أيديها ، ولكسبت نصف المعركة دون أن يقذف جندها بسهم واحد .

(٥) الخطة :

إذن فليحارب المسلمون قريشا ، أدركوا العير أو فاتتهم ، ولكن يجب أولا أن يتقدموا صوب بدر ، وينزلوا عند أدنى ماء منها يلقونه .

وقد كان . . .

فلما وصل المسلمون إلى أدنى ماء لبدر من المدينة ، أمر النبي بالوقوف ، فجاءه الحُباب بن المنذر ، وكان خبيرا بالحرب ، فسأل النبي (أمنزلاً أنزلكه الله ، فليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟)

فلما قال النبي : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، نصحه بالتقدم حتى ينزل أدنى ماء من قريش ، ثم يعور (يكبس بالتراب) باقى الآبار ، و يبنى على البئر التى ينزل عندها حوضا ، فيقاتل القوم وهو يشرب وهم لا يشربون . . .

وقد كان . . .

ولعل قريشا قد فكروا هم أيضا فى ماء بدر ، واستبق الجمعان ، فكان المسلمون أسبق إلى إدراك الماء من قريش .

وقصة « الماء والحرب » قصة قديمة ، ولكن مع هذا لا تزال لها أهميتها الأولى ، وقد جاء فى قانون خدمة الميدان ، الجزء الثانى ، بين السطور الست والأربعين التى كتبت عن « الحرب فى الصحراء » : « وأهم خواص هذه الحرب ، هى اعتماد تحركات القوات المقاتلة وأعمالها الاستراتيجية ، على تعيين نقط الإمداد بالمياه ، ومدى الكميات التى يمكن أن تكون فيها ؛ كما ترتكز العمليات عادة على مهاجمة ووقاية موارد المياه الرئيسية ، الموجودة فى الصحراء » .

والآلة لا تسير إلا إذا وجدت الوقود الذى تحرقه ، والمياه هى وقود الآلات البشرية المقاتلة ، فإذا لم تجد الماء ، فإنها لا تقوى على الصدام والحرب .

مسرح الحرب :

وأرض بدر ، نسبة إلى عين ماء بها يضىء فى الصحراء كما يضى البدر فى السماء الصافية ، ويقول ابن هشام فى سيرته عن بدر : إنها تقع على مسافة ثمانى عشر فرسخا لجنوب غربى المدينة ، وتقع آبار بدر فى العدوة الدنيا من بطن الوادى إلى المدينة ، ويقع العقنقل ، الكثيب الرملى ، الذى نزلت خلفه قريش ، فى العدوة القصوى ، وكان الوادى دهسا أى ليناً ، لم يبلغ أن يكون رملا ، وقد أمطرت السماء فلبد الماء الأرض .

وقد أرشدنى الصديق الأستاذ البكباشى عبد الرحمن زكى مدير المتحف الحربى ومحرر مجلة الجيش المصرى ، إلى مجلة فرنسية للدراسات الإسلامية ، تصدر فى باريس بعنوان :

« Revue Des Etudes Islamiques »

جاء فى عددها الأول الصادر فى عام (١٩٣٩) مقال موجز عن أماكن القتال الذى حدث فى عصر النبى ، استطعنا منه أن نخرج بمعلومات لها قيمتها ، وأثرها فى إيضاح بعض الهيئات الأرضية ، التى عفت مع الزمن ، والتى جاءت مصورة فى التسجيل المسطور ، الذى خرج به كتاب السيرة ، جزاهم الله عن جهدهم خير الجزاء ، وإن لم يكن فيها الوصف الجيد لطبيعة الأرض فى ميادين القتال .

والواقع أننا لا نجد لطبيعة الأرض فى مسرح الحرب ، طوال هذه العصور البدائية الأولى ، ما لها من تأثير فى سير القتال فى هذا العصر الحديث الذى نعيش فيه ، اللهم إلا فى معركة أُحد وحدها على التخصيص ، والعلة فى هذا أن هذا النوع من القتال الذى يتلاحم فيه المتقاتلون بالأيدى ، إنما يتطلب الأرض السهلة الفسيحة ، فلا وعورة فيها تعطل التقدم فى صفوف متراصة للاقتحام ، ولا كثبان رملية تمكن راكبى الخيل من تجنب القتال الهجومى بالمواجهة للالتفاف والدوران لعمق بعيد فى المؤخرة .

المعركة :

وفى الإجراءات الأولى للمعركة ، نجد المسلمين يبنون للنبى عريشا يكون فيه ، ويعدون عنده ركائبه وبعض الجند لحراسته ، على أن يلقواعدوهم ، فإن فشلوا فى القتال أمكن النبى أن يلحق بمن فى المدينة ، ولا يقع فى يد قريش . ويجب أن ندرك هنا فى هذه الصورة البدائية ، أنموذجا من التدابير اللازمة لوقاية القائد فى حرب الحركة ، حيث لا توجد تحصينات تمكن حماية مراكز الرياسات وراءها .

* * *

وقد بدأت المعركة بقتال فردى ، أى بالمبارزة بين نفر من قريش وآخرين من المسلمين ، ثم تزاحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، حتى التحمت الصفوف فى قوات متراصة على نظام

ضغط الجموع ، وفى هذا الالتحام نجد تأثير القوى المعنوية ، برغم تفاوت القوى العددية بين الجمعين ، ولا جدل فى أن المسلمين كانوا يقاتلون فى معركة حياة أو موت ، ولا جدل أيضا فى أنهم قد وجهوا هممهم إلى تصيد سادات قريش وزعمائها ، وكان لهذا أثره فى ارتباك المقاتلين من عامة الناس ، ولكن لا جدل فى أن الإيمان كان يملأ المسلمين بقوة لا قبل لقريش على مواجهتها ، لقد شهد الناس قوة كفاح الروس ضد الألمان ، يوم أن كان الأخيرون يهددون موسكو ولينينجراد بالغزو والتدمير فى قرابة ختام عام ١٩٤١ ، ولكن ما قيمة الوطنية والدفاع عن الوطن بالنسبة إلى الوقوف فى جانب الله ، والدفاع عن دينه ونبيه .

والذى زاد فى هذا الروح القوىّ وقوف محمد بين المسلمين يحرضهم على القتال « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » . (الأنفال ٦٦) . ثم كيف يمكن أن نقدر هذه القوى المعنوية لمقاتلين يسمعون قائدهم ورسول الله إليهم يقول لهم عند احتدام القتال : « والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » .

وأى ثمن بعد هذا يطمع فيه الجندىّ فيدرك غاية آماله بالوصول إلى الجنة لو قتل مقبلا غير مدبر ؟ أى يقتل وهو يهاجم جند قريش ، لا متقهقرا فزعا مرتدا يطلب النجاة من الموت .

وسرى الروح القوىّ من محمد إلى هذه الحفنة من الرجال ، فتواثبوا إلى الموت خفافا ، ثم شدوا على قريش ، فكانت المعركة الكبرى ، وكان النصر الأول .

وتبدو عظمة الروح الإسلامى السمح عند ما نجد محمدا يحرض المسلمين على القتال ، ولكنه مع هذا يطلب منهم أن لا يقتلوا أحدا من بنى هاشم ، وألا يقتلوا بعض سادات قريش ، وليس هذا إلا لأنه كان يذكر لهؤلاء وقوفهم فى وجه قريش ، لرفع الأذى عنه وعن المسلمين الأولين فى مدى ثلاثة عشر عاما ، أى من يوم بعثه إلى يوم هجرته .

ونجد أيضاً فى حديث هذه المعركة سماحة النبى وسماحة الإسلام ، فقد حفظ النبى لأسرى بدر من سادات قريش مكانتهم ، وقبل فداءهم بالمال (إلا مَن لاشىء عنده ، فقد منَّ عليه بحريته) . فعل محمد هذا فى القرن السابع للميلاد ، ثم تتابعت القرون ، فإذا ما جاء القرن العشرون وجدنا فى هذه الحرب الأممية الجامعة ، أمما متمدينة تقتل الأسرى ، وتهتك الأعراض ، وتذبح المدنيين العُزْل .

آثار انتصار بدر

وقد كان لبدر — أول نصر للمسلمين — رد فعل عميق، فقد تركت فى مكة جزعا وقلقا مكبوتين، وأثارت أمرا جديدا، ليس هو من أمر الدين فى شئ، فقد تحول الأمر إلى حرص على الثأر لقتلى بدر، الثأر من محمد وأصحابه يوم أن تتهيأ الفرصة لهذا الثأر.

ولكن الأثر الأكبر لبدر كان فى المدينة لا فى مكة، فقد شعر اليهود والمشركون فى المدينة أن ريحا عاصفة ستقتلهم، وأن دولة ناشئة ستغزو أرضهم وما حولها، وأن الرجل الذى جاء المدينة مهاجرا قد بات مرعىّ الجانب، لا سلطان يعلو سلطانه، وأنصاره أولئك الذين كانوا بالأمس القريب يخافون عليه لقاء الجمع القليل من قريش، قد أحسوا لذة الانتصار على قريش كلها، سادتها وعبيدها وأحابيشها، وبدا ما كانوا يخافونه حقيقة لا تقبل الجدل، فقد عاد المسلمون من بدر قوما آخرين، فقد كانوا لأول عهدهم بالمدينة لا يجرءون على الاعتداء على من يعتدى على مسلم، فلما عادوا منتصرين من بدر، لم يتركوا من سبق لهم الاعتداء على الإسلام والمسلمين، بل ردوا الاعتداء بمثله، فكان أن قتل أبو عفك وعصماء بنت مروان.

والواقع أن أشد الناس حفيظة على المسلمين بعد بدر كانوا هم اليهود، ذلك لأن «الشعب المختار» لم يكن ليقبل هذا الوضع الجديد، واليهود يحتكرون التوحيد كما يحتكرون التجارة. ولقد حاول الدكتور إسرائيل ولفنسون فى كتابه «تاريخ اليهود فى بلاد العرب»، وهو أوفى مرجع كتب عن هذا الموضوع، أن يظهر يهود يثرب فى صورة غير حقيقية، فقال: «كان يهود يثرب يتشوقون لرؤية الرجل الذى ينشر دعوة دينية تتفق فى جوهرها مع عقائدهم، وكانوا يعتقدون أن ظهور رجل ليس من بنى إسرائيل يدعو إلى توحيد الإله وإلى تعاليم التوراة، وإلى تمجيد إبراهيم وموسى، إنما هو ظاهرة غريبة فى التاريخ البشرى»

« ولا شك أنهم سمعوا عن مُصْعَب بن عُمير بعض الآيات القرآنية ، وأنه كان لهذه الآيات وقع حسن فى نفوسهم ، جعلهم يؤملون فى هجرة النبى إلى يثرب آمالا كبارا [1] » .

ولكن الواقع أن اليهود كانوا يأتمرون بالإسلام والمسلمين ، برغم العهد الذى كتبه النبى ليحقق وحدة المدينة ، فيقضى على العداوة بين الأوس والخزرج ، ثم يضم اليهود إلى دائرة هذا الاتحاد الجديد كحلفاء ، « وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم [2] » وقد وقع على هذه الصحيفة اليهود الذين ذكروا فيها ، وأما غيرهم من القبائل الأخرى اليهودية ، كبنى قُريظة وبنى قَيْنقاع ، فقد تحالفت مع النبى بمعاهدات خاصة ، ولكن الأقدار كانت تسابق الزمن ، فكثر جدال اليهود للنبى وللمسلمين ، واشتد عنادهم ، حتى ضاقت الصدور ، فنهى القرآن عن مخالطة اليهود ونقاشهم والاستماع لجدلهم ،

« يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً » النساء — ١٥٣

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » « المائدة آية ٥٧ » .

على أن تآمر اليهود كان حتى بدر يقوم فى صورة جدل دينى ، فلما رجع المسلمون منتصرين من بدر ، كشف اليهود عن نياتهم ، كانوا يظنون أن محمدا قد لقى فى بدر قوما لا علم لهم بالحرب ، فأصاب منهم فرصة .

---

(١) راجع « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » صفحة ١١١ برقم ٤٤٩٩ تاريخ بدار الكتب المصرية .

(٢) راجع سيرة ابن هشام صفحة ٧٤ ج ٣ برقم ٣٨٧٢ ديانات بدار الكتب المصرية .

وكانوا كذلك يستندون إلى محالفتهم للخزرج ، و إلى احتمائهم وراء عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، وكان أول مظاهر اجتراء اليهود ، أن اعتدى يهودى صائغ من بنى قينقاع بالمدينة ، على امرأة مسلمة ، فاستغاثت ، فقتل أعرابى مسلم الصائغ اليهودى ، فقتل اليهود الرجل المسلم ، وكان هذا هو الشرارة التى ألهبت يابس العشب ، فبدأ القتال الذى انتهى بإخراج بنى قينقاع من يثرب .

والذى يرجع إلى قصة القتال مع بنى قينقاع فى سيرة ابن هشام ، يجد روح التسامح التى واجه بها الإسلام خصومه من البداية ، فإنه عندما بدأ القتال بين المسلمين واليهود ، طلب النبى من اليهود أن يكفوا عن أذى المسلمين ، ولكن هؤلاء كانوا قد أجمعوا أمرهم على القتال « إنا والله لو حاربناك يا محمد لتعلمنّ أنا نحن الناس » .

ولم يكن اليهود قط الناس ، ولا سيما فى الحروب التى أثارها عليهم المسلمون ، بل هم الذين قالوا لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » .

على أن إجلاء بنى قينقاع عن المدينة له معنى أسمى وأكبر ، فإن محمدا لم يكنْ قائدا وحسب ، و إنما كان زعيما أيضا ، فالمسألة ليست مسألة رجل يقتل ثم يتوادع الجمعان ، و إنما هى مسألة وحدة سياسية ، والمدينة موطن الإسلام يجب ألاّ تكون ميدان صراع بين الطوائف ، فليس أضر على وحدة أى مدينة أو دولة من تنازع الطوائف فيها .

ما بعد بدر

على أن بدرا لم تأت بالهدوء لا للمسلمين ولا لغيرهم ، من قريش ومن القبائل الضاربة بين مكة والمدينة ، أو الضاربة على طريق قريش إلى الشام .

فلم يكد يمر شهر على بدر حتى خرج أبو سفيان خفية إلى المدينة ، فى جمع من الرجال قيل إنه أربعون ، وقيل إنه مائتان ، ووصل أبو سفيان إلى العُرَيض على مقربة من المدينة ، فقتل القرشيون رجلين من المسلمين كانا يحرثان أرضا لهما ، ثم عادوا مكتفين بأنهم وصلوا إلى عقر دار محمد ، ولكن محمدا عندما بلغه النبأ خرج فى جمع من أصحابه يتعقبون أبا سفيان ، وانقلب الأمر فبات مطاردة سريعة ، كانت حربا على أهل مكة ، لأنهم فى عجلتهم كانوا يلقون كل شىء ، حتى زادهم من السَّويق ، ليمعنوا فى الفرار ، ولما لم يلحق النبى بهم ، جمع المسلمون ما غنموا من المشركين ، وعادوا للمدينة ، فكانت غزوة السويق هذه بدرا أخرى فى آثارها ، لأنها أوضحت أن انتصار بدر كان حقيقة واقعة ، وأن قريشا قد باتت تخاف محمدا والمسلمين ، وأن أبا سفيان وغيره من أبطال قريش الذين خبروا القتال قد باتوا يخافون مقابلة النبى فى أى صدام .

و إذا كان هذا ، فإن قريشا لابد أن تترك طريقها المعتاد إلى الشام ، فماذا تكون الحال الاقتصادية لهذه القبائل الضاربة على طريق قريش ، إذا غيرت قريش طريق تجارتها ؟ وكل هذا قد سببه محمد والمسلمون ، والاضطراب الاقتصادى عامل من عوامل الحرب منذ فجر البشرية ، فلماذا لا تحاول هذه القبائل غزو المدينة وقتال المسلمين ، فتكفى قريشا والعرب أمر هذا الدين الفتى الجديد وأمر أصحابه ، و بلغ النبىّ ما أجمعت عليه القبائل ، فكان لزاما عليه أن يبدأهم قبل أن يبدءوه ، والهجوم هو الأصل الأول فى أصول الحرب ،

والسرعة أى خفة الحركة أهم الأصول التى تكسب النصر ، وإذن فيجب ألاّ ينتظر محمد تجمع القبائل وسيرهم إليه ، بل يجب أن يتبع بدرا والسويق بغيرهما .

وقد كان ...

وتجمع بنو غَطَفان وسُلَيم ، فخرج محمد عليه السلام إلى قُرقُرة الـكُدْر ، ففر المشركون تاركين خمسمائة بعير ، وتجمع بنو ثعلبة ومحارب بذى أمَر ، فخرج محمد عليه الصلاة والسلام فى أربعمائة وخمسين من المسلمين ، فهرب الجمع إلى رءوس الجبال .

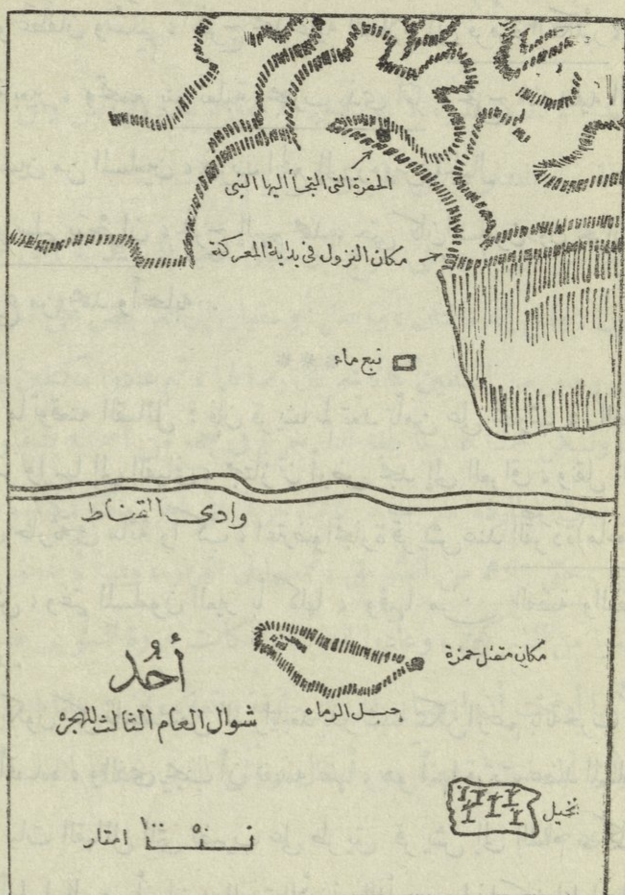
وتجمع بنو سليم ببَحْران ، فخرج إليهم محمد ، حتى كان المسلمون دون بحران بمسيرة ليلة ، ففر القوم فى فزع من محمد وأصحابه .

***

وقد صح ما توقعته القبائل ؛ فإن قريشا لم تعد تأمن على تجارتها فى الطريق الساحلى إلى الشام ، فضربوا بها إلى الفيافى ، مجتازين أرض نجد إلى العراق ، ونقل النبأ إلى النبى ، فأرسل زيد بن حارثة فى مائة راكب ، اعترضوا تجارة قريش عند القَرَدَة (ماء من مياه نجد) ، ففر رجال قريش ، وغنم المسلمون العير بأكملها ، وفيها من الفضة والبضائع ما قيمته مائة ألف درهم .

وربما لا يكون كل ما سقت من السرايا بعد بدر شيئا يمكن الزعم بأنه حرب ، وبأنه قتال ، ولـكن الذى أقصده ، والذى يجب أن نفهمه عنها ، هو أنها قوّت عضد المسلمين ، وأنها قد كشفت عن نيات القبائل التى تضرب على طريق قريش إلى الشام ، كما كشفت أن قريشا لا يهدأ لهـا بال ، وأنها تعد العدة للأخذ بالثأر ، ولهذا كان لزاما على المسلمين أن يكونوا على حذر ، وأن يتأهبوا لـكل طارق بليل .

والنبى القائد الأول ، هو الذى يحتمل مسئولية وقاية قواته ومعسكره المحصن فى المدينة . ولهذا يجب أن يحتفظ بعين ساهرة تجيئه بأخبار قريش . ولعلنا هنا نتنزه فى الـكتابة فلا نقول إنه كان للنبى بعض أفراد من الطابور الخامس يعملون فى مكة ، ولـكن الواقع أن عمه العباس كان يبعث إليه بالرسل تحمل إليه أنباء قريش ، وبذلك كان النبى يعرف أخبار أعدائه أولا فأولا ، وما فى هذا جُناح ، فإنها الحرب والرأى والمـكيدة.


الحفرة التى التجأ اليها النبى
مكان النزول فى بداية المعركة
نبع ماء
وادى القناة
مكان مقتل حمزة
أُحُد
شوال العام الثالث للهجرة
جبل الرماه
نخيل
٥٠ ١٠٠ امتار

— ٧ —

أحـد

وأجمعت قريش على الخروج للقاء محمد والمسلمين ، وقد خسرت يوم بدر سبعين من كبار رجالاتها ، ولـكنها اغتنمت نجاة عير أبى سفيان ، وعدتها خمسون ألف دينار وألف بعير ، والمـال عصب الحرب ، والناس وقودها ، و إذن فلترصد هـذه الأموال لتنتقم قريش ، ولتأخذ بالثأر ، وليكن أبو سفيان نفسه قائد قريش هذه المرة .

وأدرك النبى من رسائل العباس أن قريشا تتأهب للخروج ، ثم إنها خرجت فى ثلاثة آلاف مقاتل ، ربعهم من حاملى الدروع ، التى عرفها العرب عن الأكاسرة والروم ، وأن فيهم قرابة المـائتى فارس ، على رأسهم خالد بن الوليد ، وقد قسمت قريش جندها ثلاثة ألوية ، أكبرها على رأسه طلحة بن أبى طلحة .

وواصلت قريش السير حتى وصلت إلى العقيق ثم نزلت عند بعض السفوح من جبل أحد على مسافة تقرب من خمسة أميال من وسط المدينة .

ولم تستتر قريش تحركاتها وتجمعها ، فأطلقت جمالهـا ترعى زرع يثرب ، وتسابقت الخيل حتى أشرفت على المدينة ، وكادت تدخلها .

وكان النبى قد أخفى خطاب العباس إليه ، لم يعلن به أحدا من أصحابه ، و إن كان قد بعث ببعض رجاله ليأتوه بحقيقة الأمر ، إلا أن القصة لم تعد سرا ، وبات الناس فى المسجد ، وقد احتملوا أسلحتهم خوفا على النبى ، وأحاطت نقط الحراسة بالمدينة ، تحميها من القوات التى قد تحاول التسرب إلى داخلها

الشورى

ومرة أخرى نجد الشورى فى مؤتمر التخطيط للمعركة ، ولـكن النبى كان لا يريد أن يجمع أمره قبل أن يتعرف آراء الناس فى الخروج والبقاء ، وفى هذا المؤتمر نلاحظ أروع

الأساليب البدائية لحرب المدن ، فمن الممكن أن تشبك المدينة بالبنيان حتى تكون كالحصن ، ثم يجتمع النساء والأطفال فى الصياصى لرمى العدو بالأحجار ، والرجال يقاتلون فى الطرقات لرد من يستطيع التسرب فوق البنيان الذى يحيط بالمدينة ، ولكن مثل هذا القتال الدفاعى قد يضعف روح المسلمين المعنوية ، كما أنه يزيد روح قريش قوة وجرأة فإذا ظل المسلمون فى المدينة قالت قريش لقد حصرنا محمدا ورجاله فى عقر دراهم .

على أن المسلمين لو خرجوا لملاقاة قريش ، لوجدوا جحافلها وفيها القوة فى العَدَدِ والعُدَد ، ولكن المسلمين أقوى فى الروح المعنوى ؟ ثم إنهم على مقربة من ديارهم ، يذودون عن عرضهم وعن حريمهم (١) ، ثم هم أقوى اليوم مما كانوا يوم بدر ، وقد نالوا نصرا كبيرا يوم بدر ، فلم لا ينتصرون أيضا يوم أحد .

وكسب الجولة الأولى أولئك القائلون بالخروج ، وكان محمد يخشى على المسلمين الهزيمة ، ولكنها الشورى ، وما دام الله لم يأمره بالبقاء ، فليخرج إذْ كان هـذا رأى عامة المسلمين .

خروج المسلمين إلى أحد

فلما اقترب المساء خرج المسلمون نحو أحد ، مخفين تحركاتهم وترتيباتهم الدفاعية تماما . وكان خروج المسلمين فى ثلاثة ألوية : لواء الخزرج للحُباب بن المنذر ، وقيل لسعد بن عُبادة ؛ ولواء الأوس لأسد بن الحَضير ، ولواء المهاجرين لمصعب بن عُمير ، لأنه من بنى عبد الدار وكان لهم فى الجاهلية اللواء والحجابة والسقاية والرفادة ، فلما قتل فى بداية المعركة أعطى النبى لواء المهاجرين لعلى بن أبى طالب .

فلما بلغوا (الشيخين) ـ فى منتصف المسافة بين المدينة وأحد ـ رأى محمد جمعا من الناس لا يعرفهم ، فلما سأل عنهم قيل هؤلاء من اليهود حلفاء عبد الله بن أبىّ ، فردهم النبى . فلا يستنصر نبى المسلمين بأهل الشرك على أهل الشرك إلا أن يسلموا ، وأصر النبى على أن

---

(١) العرض : الوادى ذو الشجر . والحريم : الأرض التى تحيط بالبئر .

يرجع اليهود فكان أن رجع ابن أبيّ مع نفر من أصحابه ، و بقي محمد فى سبعمائة مقاتل ، لخوض غُمار معركة ضد ثلاثة آلاف من قريش ، كلهم موتور من يوم بدر ، وعين النبى للحراسة خمسين رجلا ، على رأسهم محمد بن مسلمة ، وأخذوا يطوفون بالمعسكر ، ويكشفون ما حوله خشية المفاجأة .

التنظيم للمعركة

وسار المسلمون مع الصبح حتى بلغوا جبل أحد ، فاجتازوا مسالكه ، وجعل النبى الجبل وراء ظهر المسلمين ، وتخير خمسين من الرماة ، على رأسهم عبدالله بن جبير من الأنصار ، أوقفهم على شِعب فى الجبل (١) ، على أن لا يتركوا مكانهم ، انتصر المسلمون أم هزموا ، وما عليهم إلا أن يرموا خيل قريش بالنبال إذا حاولت الدوران حول ساقة المسلمين أو مؤخرتهم الدفاعية .

واصطف المسلمون فى صفوف كالبنيان يشد بعضه بعضا ، ووقفت قريش قبالتهم ، جاعلة الخيل تحت إمرة خالد بن الوليد فى الميمنة ، وعِكرمة بن أبى جهل بلوائه فى الميسرة ، و بقية قريش فى القلب ، ووقفت صفوة نساء قريش يضربن بالدفوف والطبول و ينشدن الأناشيد للتحريض على قتال المسلمين

مسرح الحرب فى أحد

ولم تحدثنا كتب السيرة عن مسرح الحرب فى أحد ، و إن كان يبدو من الرسوم التى جاءتنا فى الدراسة الفرنسية ، التى أشرنا إليها فى حديثنا عن بدر ، أنه جبل كثير المسالك ، تقطعه عدة وديان ، و يدور دورة واسعة فى مواجهة السهل الضيق الذى وقفت قريش عنده ، وفى الجبل شعاب كثيرة ، كما أن تعرجات الأرض جعلت فى انحداره فجوات أو شبه حفر ، تصلح للاختفاء فى الحرب الدفاعية لقذف النبال ، ويحدثنا ابن هشام أن النبى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى إلى الجبل ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد

---

(١) يبدو أنه جبل الرماة لا أحد .

المعركة

ولم يبدأ القتال هذه المرة بالمبارزة . فقد كانت خطة قريش أن يدور عكرمة حول المسلمين ، فيأخذهم رجاله من الخلف ، فإن فشل حاول خالد هذا من اليمين ، أى أن تكون تحركاته الجانبية أقصر مدى . وهو لهذا يجب أن يرتقى الجبل بالخيل ، وحمل عكرمة بلوائه ، محاولا الدوران حول ساقة المسلمين ، فأخفق ؛ وبدأ خالد حركة الالتفاف محاولا التسرب فى صعوده للجبل ، فأمطره الرماة وابلا من النبال فتقهقر مرتدا إلى قاعدته الأولى فى صفوف قريش .

وهنا عاد القتال إلى صورته البدائية الأولى ، قتال رجل لرجل ، فبرز من قريش طلحة بن أبى طلحة ، فبرز له على وقتله ، فتلقى لواء قريش عثمان بن أبى طلحة ، فقتله حمزة ، فتسلم اللواء أسعد بن أبى طلحة ، فقتله على ، فأخذ اللواء أخوهم الرابع مُسافِع ، فقتل وقتل من بعده ثلاثة تناوبوا احتمال لواء قريش . . .

وهنا كانت الحمية قد بلغت فى قلوب المسلمين الشىء الكثير ، فصاح النبى شدوا ، فهاجم المسلمون صفوف قريش فى قتال قريب المدى بالسيوف ، فأزالوهم عن مكانهم ، وأرغموهم على طلب النجاة من الموت بالفرار .

وكان سبب معجزة الانتصار صبيحة يوم أحد ، عاملا واحدا هو القوة المعنوية ، ولكن الانتصار لم يكن حاسما ، كانت المعركة لا تزال محتدمة ـ « وفى اللحظات التى نفوز فيها إحدى القوتين دون الوصول إلى نتيجة حاسمة ، فإن أهم شىء هو الاحتفاظ بالأوضاع ولا سيما للقوات التى تقوم بأعمال الوقاية ، والمطاردة فى أدوارها الأولى تبدؤها القوات التى وصلت إلى النجاح الابتدائى ، مالم تكن هناك قوات خفيفة الحركة ، خاصة للقيام بهذه المطاردة ـ كما يجب أن تظل القوات الخلفية فى أماكنها لا تتركها إلا بأوامر من مركز القيادة ، الذى يكون إذ ذاك وراء القوات المتقدمة » .

وفى هذا الطور من معركة (أحد) ، لم يكن القتال قد انتهى ، ولكن أولئك الرماة

الخمسين ظنوا أن النصر قد جاء ، وأى علائم للنصر أكثر من أن يعود المهاجمون على أعقابهم مرتدين ، وينقلب الدفاع هجوما فمطاردة ؛ فترك الرماة أماكنهم فى شعب الجبل ، للاشتراك فى جمع الغنائم والأسلاب ، وفى عصر المحارب الفرد كانت الغنائم وحدها هى أهم ما يشغله بعد انتهاء القتال، مامن هذا بد ، ولكن بعضا قليلا لبثوا فى مكانهم كما أمرهم النبى .

وفى هذه المرحلة نجد صورة براقة لكفاية خالد بن الوليد ، قائد المسلمين فى عصر متأخر ، فقد كان يتقهقر وعينه إلى الجبل لا تفارقه ، فلما رأى الرماة يتركون مواقعهم ، انقلب راجعا ، ودار دورة واسعة ، متخذا من الأراضى المستورة دربا وطريقا له ، وجاء فى أعقابه عكرمة بلوائه ، فتسللوا فوق الجبل ، وأزاحوا الرماة الباقين من مكانهم ، واقتحموا خطوط المسلمين من الخلف ، فكانت مفاجأة لم يتوقعها المسلمون الذين يعرفون أن مؤخرتهم محروسة ، وفى غمرة هذا الاضطراب اختلط المقاتلون ، فكان المسلمون يقتل بعضهم بعضا .

وأصيب النبى بجرح ، وسقط فى حفرة من الحفر ، وقد خضب وجهه بالدماء .

وغاب محمد عن ميدان القتال ، تخلف القائد الأول ، عن جنده : فصاح رجل من قريش أن محمدا قد مات فانكفأ المسلمون وانكفأ عليهم القوم .

والواقع أن لمقتل القائد فى إبان المعركة تأثيرا على الأقل فى تطور إجراءاتها تبعا لمن يلى القيادة بعده . وفى الدور الأول لمعركة العلمين (٢٣ أكتوبر ١٩٤٢) بدا فى تخطيط أوضاع المحور بين تأثير مقتل الجنرال ستوما فى غياب رومل وقيام فون ثوما بالقيادة بدله ، ولكن القيادة فى العصر الحديث تتبع تدرج مراتب كبار الضباط ، ولكنها فى ذاك العصر البدائى كانت أمرا يرجع إلى الاختبار واليقين ، ولم يكن النبى عليه الصلاة والسلام قد عيّن للمسلمين قائدا يخلفه لو مات أو قتل ، ولم نجد فى مطولات كتب السيرة شيئا من هذا ، ولكن مع ذلك كله فيجب ألاّ يكون لإشاعة مقتل محمد ، هذا الأثر فى الاضطراب الذى حدث فى صفوف المسلمين ، ولا فى نفوس أقوى وأشجع رجالهم . ويقص ابن هشام فى الجزء الثالث صفحة ٨٨ من السيرة طبعة الحلبى قال : انتهى أنس بن النضر إلى عمر بن الخطاب

وطلحة بن عبيد الله فى رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا بأيديهم ، فقال ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ، قال : فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ فموتوا على ما مات عليه » .

وكان أولئك الذين أحاطوا بالنبى فى شاغل عن كل شىء إلا هو ، فأخذ علىّ بيد محمد ، ورفعه طلحة بن عبيد الله ، حتى استوى قائما ، وراح القوم يتراجعون إلى الجبل ، يدفعون عن قائدهم كل شىء بصدورهم .

وفى هذه المعركة وحدها قتل رسول الله رجلا بيده ، مسألة لم تتكرر بعد فى كل الغزوات التى اشترك فيها الرسول ، هذا الرجل هو أُبَىّ بن خلف ، والقائد يقاتل بتفكيره وخططه ، ولا يقاتل بسلاحه وعدة قتاله إلا مدافعا عن نفسه ، وهكذا كان ، فقذف النبى ابن خلف بحربة فى عنقه ، فأسقطه عن فرسه ، ولم يكن الجرح بالغا ولكنه تسمم فى الطريق إلى مكة ومات .

وكان خالد لا يزال فى بعض الخيل يرتقى الجبل ، فأمر رسول الله عمر بن الخطاب ورهطا من المهاجرين ، فأنزلوهم عنه ، وعرف الناس أن محمدا لم يمت ، فعاد للمسلمين روحهم الأول القوىّ ، وتجمعوا حول مكان النبىّ يدافعون عنه ، ويدفعون قريشا عن اعتلاء جبل أحد .

ورأى أبو سفيان أن قريشا قد انتقمت لبدر ، ويوم بيوم ، فصاح فى المسلمين أن موعدهم بدر العام القادم . ودفن جند مكة قتلاهم ، ومثلوا بقتلى المسلمين ، ثم امتطوا الإبل وجنبوا الخيل ، فأدرك المسلمون أنهم قد اعتزموا المسير إلى مكة ، فنزل المسلمون من معتصمهم فى شعاب الجبل ، وعادوا إلى المدينة لأول مرة منهزمين .

ولعلنا إذا قلنا إن المسلمين قد أغفلوا أمر (متابعة النجاح واستثماره) يوم بدر ، فإن جند قريش قد غفلوا عن هذا أيضا ، وهم فى أوج انتصارهم يوم أحد .

ولكن ماذا يفعل المسلمون ومُقامهم فى المدينة بعد هزيمة أحد بلا عمل سريع حاسم ، يشجع المنافقين كما يشجع اليهود ، وهؤلاء إذا رأوا المسلمين يركنون إلى دورهم للعق جراحهم ، استخفوا بقوتهم ، فلما كان الغد من يوم أحد ، ولما ينفض المسلمون عنهم آثار أحد بعد ، أمر محمد عليه الصلاة والسلام من حضروا المعركة بالخروج ثانية لتعقب قريش .

والواقع أن النبى لم يكن فى قوة لخوض غمار معركة ثانية مع جيش قريش الكبير العدد ، الملىء بزهو الانتصار . على أن قريشا لم تتوقف ، ولم يدرك المسلمون حتى ولاساقتهم ، والذى يبدو لنا هو أن النبى قد قصد :

١ — الاطمئنان إلى أن قريشا لم تتخلف بمكان قرب المدينة لمهاجمتها فجأة .

٢ — منازلة القوات الصغيرة التى قد تكون فى ساقة جيش قريش .

٣ — أن يُشْعِرَ قريشا والقبائل كلها ، أن هزيمة يوم أحد لم تنل من المسلمين .

٤ — إفهام يهود المدينة بطريق عملى غير مباشر أن المسلمين جادون فى القتال ، ولا يضعف منهم ما قد يصيبهم من خسائر ، وأن الحرب سباق : يوم له ويوم عليه .

وعلى هذا يكون النبى قد خرج غداة أحد لمعركة كل عواملها استراتيجية بحتة ، وإلى هذا الحد يكون قد كسب الجولة الثانية من المعركة بلا منازع ، فقد وصل المسلمون إلى حمراء الأسد (ثمانية أميال من المدينة) فبقُوا بها ثلاثة أيام يشعلون النيران ، لتتعرف قريش مكانهم ، ولكن قريشاً قد اكتفت بما أدركت ، وتابعت السير مجدة إلى مكة .

ولكن لا شك أن هزيمة أحد كانت كبيرة لا بعدد من قتل فيها من المسلمين ، وأولهم حمزة عم النبى وأقوى رجاله ، ولكن بآثارها ، فقد فقد المسلمون بعض سطوتهم التى كانوا قد اكتسبوها من بدر ، وكان لزاما أن يفعل النبى أشياء وأشياء ليستعيد المسلمين ما كان لهم من قبل .

***

ومعركة أحد معركة دفاعية قد اتُّبِعَتْ فيها كل الأصول الحديثة ، بكل ما فى هذه الكلمات من معنى .

يقول الجنرال بيمن فى كتابه (مجمل أصول فن الحرب الحديثة) صفحة ٥٦ :

« ويمكن القول بأن التطورات الحديثة قد بسطت سياسة الدفاع . ولهذا يجب فى المعركة الدفاعية أن يلاحظ الآتى :

ا — اختيار المواقع الدفاعية أوليا من وجهة الدفاع ضد الدبابات (الأسلحة الخفيفة) ، وكلما أمكن أن تستند الأجناب إلى مواقع تجعل حركات الدوران والالتفاف من الصعوبة بمكان إن لم تجعلها مستحيلة .

ب — إخفاء ترتيبات الدفاع .

ج — الحصول على العمق فى الدفاع ، بإبقاء القوات فى الخلف . وهذه تحمى الساقة (المؤخرة) كما تكون احتياطيا قويا ؛ ولهذا يجب أن تحتل مواقع معدة تماما من البداية .

د — لا يعمل أى هجوم ولا تحركات بالقوات التى يحتاجها الدفاع لموقعه الخلفى ، حتى يكون الموقف واضحا تماما ، ويكون العدو المهاجم قد اشترك بكل قواته فى المعركة .

ولا يعنينا ما ساقه بيمن بعد هذا من حديث ، بقدر ما تعنينا هذه السطور التى سقتها هنا ، وهذا التدبير الفنى لو تعقبنا أدوار أُحد من بدايتها ، لوجدنا أن محمدا عليه الصلاة والسلام قد اتبعه تماما فى أحد ، قبل ألف وثلاثمائة وستين عاما من كتاب بيمن ، أحدث ما كتب فى الحرب الدفاعية ، قبل جزر المقاومة وحقول الألغام .

— ٨ —

ما بعد أحد

وخلفت أحد للمسلمين تركة مثقلة بشتى العوامل ، وقد تشجعت القبائل فى مهاجمة المسلمين بشتى ضروب التهجم . فوفد قوم من قبائل عَضَلَ والقارة من الهَون بن خزيمة ابن مدركة ، وطلبوا من النبى أن يبعث معهم من يعلمهم الدين ويحفظهم القرآن ، فأرسل معهم ستة من الصحابة ، وبينما هم فى الطريق قتلوا ثلاثة منهم ، ثم غيبوا الرابع فى رمسه ، وباعوا الاثنين الباقيين لقريش ، فقتلتهما .

وتبع هذا بقليل أن وفد على المدينة رجل من شجعان ربيعة فى الجاهلية ، هو أبو بَرَاء عامر بن مالك ، المعروف بملاعب الأسنة ، فطلب من النبى أن يرسل إلى أهل نجد نفرا من أصحابه ، ليدعوهم إلى الإسلام ، على أن يكون هو جارالهم ، فأرسل النبى أربعين من الصحابة ، ولكن النجديين قتلوهم عند (بئر معونة) ، عدا رجلا واحدا أفلت ، ليحمل للنبى قصة اغتيال أصحابه .

على أن خسارة المسلمين لستة وأربعين من رجالهم يقتلون غيلة لم تكن هى كل ما خلفت لهم أحد ، بل كان هناك ما هو أكبر لو نجح ، وما هو أعظم لو تم ؛ فإن اليهود الضاربين حول المدينة كانوا لا زالوا يذكرون الضربة التى نالتهم بإجلاء بنى قينقاع عن المدينة ، فلما عاد المسلمون منهزمين من أحد ازداد اليهود عُتُوا ، وعاد كعب بن الأشرف أحد زعماء بنى النضير سيرته الأولى ، من إيذاء المسلمين وتجريحهم ، حتى ضاق النبى ذرعا ، وكفاه محمد بن مَسْلمة وثلاثة من أصحابه شر كعب فقتلوه .

على أن مقتل كعب لم يكن كل شىء فإن بنى النضير على مسيرة ميلين من المدينة ، وما أصاب المسلمين يوم أحد قد قوى من اليهود ، وهؤلاء وإن كان العهد بين المسلمين واليهود يلزمهم دائما بمعاونة المسلمين ، إلا أنه من يدرى ماذا يمكن أن يحدث منهم لو سارت

قريش مرة أخرى تقصد المدينة . بل و إلى أبعد من هذا ، فإن محمدا يجب أن يؤمّن معقله لو قدر له أن يخرج مرة للقاء قريش ، و إلى مدى أبعد مما خرج إليه يوم أحد ، وتأمين القاعدة الخلفية له أهميته . و إذن فليختبر محمد اليهود ، وليكشف عما يبيتون بليلهم ، وقد كان . والمال هو عدة اليهود وسلاحهم الذى يستندون إليه . و إذن فليكن المال هو موضع الاختبار والتجربة ، وسار إليهم النبى يطلب مالا للاستعانة به على أداء دية رجلين من بنى عامر ، قتلهما خطأ صحابى مسلم ، هو الرجل الوحيد الذى نجا من مذبحة (بئر معونة) ، ووعده بنو النضير خيرا ، ثم راحوا يتسارون متآمرين بالنبى ، معتزمين اغتياله ، ولعل محمدا قد سمعهم أو لعله أوحى إليه بما حدث ، فعاد أدراجه المدينة ، ولحقه أصحابه .

فلما كان الغد بعث محمد لبنى النضير يمهلهم عشرة أيام ، للجلاء عن المدينة ، فلما أبوا الخضوع لأمره ، ظانين أن ابن أبى سينصرهم على المسلمين ، خرج محمد فى جمع كبير ، وحاصر حصونهم ، التى يعتصمون بها ، فلما استعصت عليه - ونجد هنا مرة أخرى الرأى والحرب والمكيدة - أوعز النبى للمسلمين أن يحرقوا نخيل اليهود ، فيما حول الحصون التى تقوم بالمقاومة ، وأفقد الرعب اليهود قواهم المعنوية ، فقبلوا التسليم ، وخرجوا من حصونهم ، تاركين أسلحتهم ودروعهم ، إلا ما يمكن أن تحمل إبلهم من مال ، كشرط التسليم الذى أمر به النبى .

وفى هذه السطور القليلة نلحظ ناحية فذة من حكمة الرسول ، فقد زاد فى عُدة رجاله ، بما غنم من بنى النضير من أسلحة ودروع ، كما أمن جنب المدينة ، وكان فى هذا كسب عسكرى يضارع الكسب السياسى بإخراج بنى قينقاع من المدينة فى أول الأمر .

وكان فى هذا أيضا اطمئنان . فعلى الأقل قد تخلص المسلمون من أناس يقيمون داخل نطاق المدينة الدفاعى، ويمكن أن يكونوا عمالا للعدو إذا هاجم المدينة أو حاصرها ، أو يمكن أن ينقلوا إليه شيئا عن تحركات المسلمين ونياتهم ، ثم ينقلبوا مع العدو ، لو نجح فى اختراق دفاعات المسلمين ، على أساس نظرية الطابور الخامس فى العصر الحديث ؛ وانصرف يهود بنى النضير بعضهم إلى خيبر ، و بعضهم إلى الشام .

***

وكان لإخراج بنى النضير من المدينة ، أثر كبير فى الإقلال مما سببته أُحد من فقدان المسلمين لسطوتهم على المنطقة الوُسطى ، بين الحجاز والقبائل الضاربة للشرق فى نجد ، أو للشمال متاخمة للشام .

ولكن مع هذا ، ما كان للنبى ولا للمسلمين أن يعيشوا فى هدوء إلا إلى حين ، فلقد ذكر النبى موعده مع أبى سفيان بعد عام من أحد . « راجع سورة آل عمران الآيات من ١٦٨ إلى ١٧٤ » فخرج فى تسع وسبعين مقاتلا ، لا أكثر من هذا ، إذ أبى بعض الناس الخروج للقاء قريش مرة أخرى .

ونزل النبى بدرا ينتظر قريشا ، ولم يكن خطأ ما فعل ؛ فإن قريشا بدورها خرجت فى ألفى مقاتل يقودهم أبو سفيان ، فلما كانوا على مسيرة يومين من مكة بدا لأبى سفيان أن يرجع ، فقد كان العام عام جدب ، ولا يصلحهم إلا عام خصيب ؛ فإن نفقات الحرب كبيرة ، والحال الاقتصادية السيئة لا تمكن من القتال ، فنادى فى الناس أنه راجع فى انتظار عام خصيب يمكّن من الخروج للقتال . ورجع فرجع الناس وراءه .

وبقى المسلمون ببدر ثمانية أيام ، فلما عرفوا عن يقين أن قريشا قد خرجت وعادت ناكصة على أعقابها ، ارتدوا هم إلى المدينة ، ومحا رجوع قريش كل آثار أحد تماما . بل كان تراجع جند قريش عن المعركة التى حدد قائدهم مكانها وموعدها ، هزيمة كبيرة كهزيمتهم يوم بدر الكبرى .

***

على أن المسلمين قاموا فى ذات العام ـ الرابع للهجرة ـ بحملتين لم يحدث فيهما قتال ، ولكنهما مع هذا تستحقان الذكر ، فالأولى غزوة (ذات الرقاع) ، وقد خرج النبى يريد بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان فى نجد ، عندما بلغه أنهم يتجمعون يريدون حربه ، وفى هذا الغزو تبدو المفاجأة كأصل من أصول الحرب عند المسلمين واضحة جلية ، فقد كان القوم حقا يتجمعون . وكانوا حقا أيضا فى جمع كبير ، ولكنهم ما كانوا يظنون أن محمدا يبدؤهم ، ولكن المفاجأة كان لها العامل الأول ، لأن هؤلاء عندما رأوا المسلمين يهاجمونهم

فى مساكنهم فجأة ، ويأخذونهم على غرة قبل أن يعدوا العدة للحرب ، ولوا الأدبار متفرقين ، تاركين نساءهم ومتاعهم ، فغنمها المسلمون

والغزوة الأخرى هى غزوة (دُومة الجندل) ، ودومة الجندل واحة على حدود ما بين الحجاز والشام ، وتقع فى منتصف الطريق بين البحر الأحمر وخليج فارس .

وفى هذه المرة أيضا ولى الجمع فزعا ، وترك الناس متاعهم للمسلمين غنيمة ، يملكون فيها كل شىء .

على أن الذى يعنينا من ذكر (ذات الرقاع ودومة الجندل) هو بيان اتساع رقعة نفوذ المسلمين ، ومدى المنطقة التى يسيطرون عليها بعملياتهم الحربية

كان العام الخامس للهجرة قد بدأ ، ولكن كان الموقف من ناحية المسلمين كما هو ، لايبعث على الطمأنينة، لأن الخصمين القويين اللذين يناجزانهم و يتآمران بهم ، لازالا قويين وهما (اليهود ، وقريش) ، وبالرغم مما كان بين المسلمين و بين كل من الطرفين ، لم يصل الأمر إلى نتيجة حاسمة بعد ، وقبل أن يفكر المسلمون فى شىء ، كان اليهود وزعماء قريش قد بدءوا يأتمرون على الإسلام والمسلمين .

— ٩ —

الأحزاب والخندق

كان إجلاء بنى النضير من المدينة كسبا سياسيا له قيمته العسكرية أيضا، من ناحية تأمين المدينة، وتطهير نطاقها الدفاعى من أفراد قد ينضمون للعدو المهاجم، إذا أنسوا فى جانبه قوة تمكنه من النصر، أو على الأقل يمكن الانتفاع بهم فى إضعاف قوة المسلمين لضرورة ترك جماعة منهم لمواجهة هؤلاء غير المأمونى الجانب، ولكن إجلاء بنى النضير عن بيوتهم التى سكنوها منذ قرون، كان له أثر رجعى فى الأوساط اليهودية بالحجاز، فقد عرف هؤلاء أن لا بقاء لهم ما بقى محمد فى مدينته، وما بقى هذا الدين الفتى، وما لصحبه من إيمان يجعل الفرد من المسلمين عصبة لا تقهر، ولكن كيف السبيل ولا قِبل ليهود بنى قينقاع ولا بنى النضير ولا من نزلوا عليهم فى خيبر من يهود بقتال محمد، وإذن فلتكن عصبة، وليدفع اليهود قريشا وما إليها من غطفان وفزارة وأشجع ومرة وسليم دفعا للحرب، وليجمعوا بينهم فى صعيد واحد لقتال المسلمين، ولكل من هذه القبائل عند المسلمين ثأر تحرص على إدراكه، وتود لو تستطيع أن تجد الفرصة إليه.

ووضع زعماء بنى النضير وشيخهم حيي بن أخطب دعامة هذه الخطة، ثم بدءوا يعملون على تنفيذها، وسار حيي بن أخطب فى نفر قليل من أصحابه إلى مكة، فلقى أبا سفيان، واجتمع به وبغيره من زعماء قريش، ودعوهم إلى قتال المسلمين، على وعد أن يكون اليهود معهم فى جانبهم.

ولكن ما لقريش وللحرب، وقد انتقمت فى أحد مما أصابها يوم بدر، ما الخلف بينها وبين المسلمين؟ وعلام هذه الضجة الكبرى، ولا خلاف بين قريش وبين المسلمين إلا فى أن محمدا يدعو إلى عبادة إله واحد، وأنه قد جاء بكتاب من عند الله، ورجال قريش برغم كراهيتهم لدين محمد، لا ينكرون على أنفسهم أن يهمسوا لها إذا ما خلوا

إليها ، أن دعوة محمد تقوى يوما بعد يوم ، فهل يمكن أن يكون كل هؤلاء الذين يشايعون محمدا و يقاتلون دونه ويقتلون ، والفرد منهم ينظر إلى السموات العلى فرحا مستبشرا بالموت ، حمقى لا يعقلون ؟! وهنا تسأل قريش هذا النفر من اليهود وهم من أهل الكتاب الأول ، عما يختلفون عليه هم ومحمد ، أدينهم خير أم الدين الذى جاء به محمد ؟ والمسألة كما ترى لم تعد مسألة دين ، بل هى الحرب والمكيدة، ففضل اليهود الوثنية على التوحيد، وأرضوا قريشا على حساب دينهم أيضا ، باعتبارهم من دعاة التوحيد(١) .

ولسنا ننظر إلى هذا من ناحية الدين ، ولكنه يثبت لنا الحالة التعسة التى صار إليها بنو النضير بعد إجلائهم عن المدينة ، حيث كانوا أصحاب سلطان مطلق وثروة طائلة . على أنه لو جاز لنا أن نرجع لننظر إلى هذا الافتراء ، من شيوخ بنى النضير ، من ناحية أن الحرب أباحت الخداع والحيل والأضاليل ، وتاريخ الفترات الطويلة التى سبقت الحرب العالمية الأولى ملىء بأمثال هذه الحيل والأكاذيب ، إلا أننا لا نستطيع أن نتقبل أن يقدم شيوخ بنى إسرائيل وقد حملوا عَلَم التوحيد فى العالم كله منذ جاء موسى - بل واحتملوا الاضطهاد فى عصور شتى ، بسبب إيمانهم بإله واحد - على التورط إلى هذا الحد ، من تقديم عبادة الأصنام .

على أن قرار اليهود أرضى قريشا من ناحية الدين . ولكن - مرة أخرى - الحرب شىء آخر ، ورضى شيوخ قريش هذا العرض إذا سارت القبائل الأخرى لقتال المسلمين . ونظم الجمعان موعدا . . .

وتابع شيوخ بنى النضير تجوالهم يثيرون القبائل ، و يمنحون الوعود والعروض ، و يسرفون فى المنح والعطاء ، حتى قيل إنهم اشتروا سواعد بنى غطفان بتمر خيبر لمدة سنة ، وقد فعل اليهود الأعاجيب لاكتساب قلوب الناس ، و إثارتهم على المسلمين ، و إخافتهم من هذه القوة الفتية التى تكتسح كل شىء ، والتى هزمت قريشا يوم بدر ، وكادت أن تفعل هذا أيضا البارحة ، يوم أحد .

---

(١) راجع (تاريخ اليهود فى بلاد العرب) للدكتور إسرائيل ولفنسون ص ١٤٢

واكتملت المشاورات ، وكان شهر شوال للعام الخامس من الهجرة موعدهم ، وفى تمام الموعد خرجت قريش كما خرجت بنو سليم و بنو أسد وغطفان و بنو مرة وأشجع ، وكانت جملة القوم عشرة آلاف من المقاتلين عدا اليهود ، فيهم قرابة ثلاثة آلاف فارس ، وهذه قوة لم تعرفها جزيرة العرب من قبل . يقول ابن هشام فى سيرته إن قريشا يوم أن خرجت إلى أحد فى ثلاثة آلاف مقاتل، اهتزت القبائل المجاورة لهذه القوة المتجمعة، تسير مرة واحدة، فكيف بهذه الجحافل التى يتولى قيادتها العامة أبو سفيان تسير متماسكة نحو المدينة .

ولكن هل القوة فى العَدد والعُدد ، أم القوة فى القوى المعنوية التى قدرها نابليون للعوامل المادية كالنسبة بين الرقمين ثلاثة وواحد ؟ ! مسألة بدورها تتطلب التفكير .

على أن هذا كله لم يغب عن النبى ، كان قد ترامت إليه أشياء وأشياء عن هذا الأمر الذى بيت بليل ، ولكن كيف السبيل إلى لقاء هذه القوة ولم يكن لدى النبى أكثر من ثلاثة آلاف رجل ، ولم يكن فى جند المسلمين أكثر من سبعة وثلاثين من الفرسان .

ومرة أخرى لا نجد مؤتمر التخطيط ، ولكن نجد مؤتمر الشورى ؛ وفى هذه المرة أيضا نجد الرأى والحرب والمكيدة ، وإن كنا لا نلقى الحباب بن المنذر ، بل داهية آخر هو سلمان الفارسى ، وكان أخبر من العرب بمثل هذه التحركات وضروب القتال ، فأشار على محمد عليه الصلاة والسلام أن يعتصم فى المدينة ، فيشبك الأبنية بعضها ببعض ويجعل بينه و بين الأحزاب سدا لا يجتازونه ، ولا يستطيعون اجتيازه لو أرادوا ، فما لهم فى هذا حيلة ، وكانت جملة رأيه فى أن يحفر خندقا عميقا ، لا تعبره المشاة ولا تقطعه الخيل وثبا .

وقد كان .

والمسلمون جديدون على هذا الضرب من فنون تحصينات الميدان ، ولكن لم لا ، ولكل جديد طراوة ، وأخذ المسلمون يضربون الأرض حيث أراد النبى ، فحفروا الخندق من طرف الحرة الشرقية إلى طرف الحرة الغربية ، فكان دفاع من جميع الجهات .

وفى هذا التحصين نجد صورة بدائية لكل شىء ، ولكنها لا تختلف عن أحدث ضروب تقسيم أنصبة العمل ، فقد قسم المسلمين إلى فرق ، كل من عشرة رجال ، وأعطى

الفرقة الواحدة نصيبا اختلف المؤرخون فى تقديره ، فقال ابن هشام عشرة أذرع ، وقال غيره إنه كان أربعين ذراعا ، وعمل محمد بنفسه فى الحفر ، ترغيبا للمسلمين فى الحفر ، والإقبال على العمل .

ونستطيع أن نجد فيما وصلنا من المطولات من كتب السيرة ، عن مسألة حفر الخندق ، صورة قمينة بالذكر ، ذلك لأننا نجد فى هذه الصورة البدائية أنموذجا لأحدث الترتيبات الدفاعية، فقد كان الخندق على مسافة فرسخين من المدينة ، وكان معسكر المسلمين أمام هضبة سلع ، فى مواجهة قريش ، وبين الخندق والمعسكر سبخة . ولما تم حفر الخندق نقلت الأحجار التى أخرجت من باطن الأرض بالحفر إلى الجانب الأقرب للمدينة ، لتزيد من تقوية ووعورة هذا الجانب ، ولو تركت فى الجانب الآخر ، لأمكن قريشا والأحزاب أن يردموا بها جزءا من الخندق ، أو على الأقل يعدون طريقا لاجتياز الخندق ، فلما انتهت ترتيبات الحفر ونقل الأحجار ، قويت جدران الدور والمنازل التى تواجه ما تى المدينة ، أى خطوط الاقتراب إليها ، وشدت بالأبنية القوية ، وقد انتفع المسلمون بآطام وحصون بنى قريظة من اليهود ، فكان التنظيم الدفاعى كالسور العالى بين المسلمين والأحزاب .

وهذا الترتيب لأسبقية العمل فى التحقيق للمدينة ، يدل على عقلية منطقية ، لا تختلف شيئا عن ترتيب الدفاع فى العصر الحديث .

وانتهى حفر الخندق على حديث الواقدى فى أربعة وعشرين يوما ، وفى النووى فى خمسة عشر يوما ، وفى ابن القيم فى ثلاثين يوما ، وعلى أية حال فلم يكد حفر الخندق يتم حتى بانت أعلام جموع قريش والأحزاب تقدم نحو المدينة .

ونزل جند قريش ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة ، ونزلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد إلى جانب أحد ، وخرج النبى عليه الصلاة والسلام بالمسلمين ، فجعل هضبة سلع إلى ظهور المسلمين ، واستقبل قريشا ومن معها ، والخندق يفصل بين الجمعين [1] .

(١) (تاريخ اليهود فى بلاد العرب) لاسرائيل ولفنسون ص ١٤٣

وواجه الناس بعضهم بعضا ، ولكن شتان بين قوة متماسكة بأمل واحد و إيمان واحد ، و بين أناس متفرقين ليست لهم غاية مشتركة أصلا تجمع بين قلوبهم ، وهنا تثب إلى الضوء القوى المعنوية ، فلقد كان جمع قريش كامل العدد والعدد من الناحية المادية ، ولكن لم تكن هناك الروابط التى تحملهم كلهم على الإخلاص والتعاون فى القتال ، ولأول لحظة بدا أن أبا سفيان إنما هو قائد الجيش اسما لا حقيقة ، فقد كان هناك أكثر من قائد ، ذلك لأن الجمع كان فيه سفيان بن عبد شمس ، وطليحة بن خويلد ، وعتيبة بن حصن ، والحارث بن عوف ، ومسعود بن دخيلة ، وغيرهم وغيرهم ، وكل من خرج على رأس قومه كان يرى نفسه أهلا للقيادة ، وأهلا لأن تكون له الصدارة والرأى الأول .

وهنا نجد أول درس فى أهمية القيادة القوية الموحدة للقوات المتحالفة ، التى تعمل فى صعيد واحد لإدراك غرض واحد ؛ لأن التفرق فى القيادة هو العامل الأول للاخفاق ، إذ أنه تبعا لتفرق القيادة يكون الخلاف فى الرأى وفى العمل بين قادة هذه القوات ، التى تكون المجموعة الكبرى ، أى الجيش .

والأمر الثانى أن كل هذه المجموعات من الأفراد كانت متباينة المطامع ، كانت قريش تفكر فى تجارتها ، لا يعنيها من الأمر إلا أن تشق الطريق إلى الشام فى أمن ، وكانت غطفان تقاتل مأجورة ، كل همها ما وعدت به من محصول تمر خيبر لعام كامل ، وكانت لغيرها أيضا أطماع متباينة الصور والتوجيه ، ولكنها لا تزيد على محاولة الثأر لنفر من القتلى ، ولكن لا علاقة لهم بالصراع الأكبر بين المسلمين وقريش ، وطبعى أن لا يكون لهؤلاء رغبة فى التضحية برجالهم بثمن بخس . وليس هناك الدافع الذى يؤدى إلى الاستماتة فى القتال ، فلا غاية ولا مأرب ، بل إنهم كلهم أشد رغبة فى الانتهاء من الأمر بأقل تضحية ممكنة ، طال الزمن أو قصر .

ووقف الجمعان يتبادلان إلقاء النبال والسهام من بعيد ، كتراشق المدفعيات البعيدة المدى

اليوم ، ولـكن هذه النبال والسهام قد تكون هى النيران الساترة للقوات التى تزحف نحو الخصم منتفعة بها ، ولـكن أين السبيل لهذا والخندق يسد الطريق .

ومرت بضعة أيام ، وضاق اليهود بهـذا الحصار الذى لا ينتهى مادام الخندق ، وآطام يهود بنى قريظة كالسور بين المسلمين و بين الأحزاب ، لاسيما وأن المسلمين يجدون عند بنى قريظة حاجتهم من مؤن وسلاح .

وضاقت قريش بهذا ، لاسيما وأن الناس قدجاءوا ليشهدوا صراعا داميا فى شبه مذبحة ، بين عشرة آلاف مقاتل وثلاثة آلاف فقط فى الجانب الآخر ، وهذا الصراع الدامى هو وحده الذى يمكنهم من القضاء على القوة المعادية ، التى تسبب كساد تجارتهم ، بأن تعطلها عن إدراك الشام بأقصر الطرق وأيسرها ، آمنة مطمئنة .

وكما ضاق هؤلاء ضاق غـيرهم بالوقت الذى يمر ، فلهم مصالح قد عطلت ، و إن كان العرب قد عجبوا من هذا التجديد الفنى ، الذى أدركه المسلمون ، وما كانت الحرب لتمـكن أن تصل إلى شىء ما دامت تسلك هـذا السبيل ، و إذن فليبذل المتحالفون جهدا جديدا لإدخال عامل الحركة إلى الحرب القائمة ، وحاول بعض فرسان قريش أن يقتحموا الخندق من أضيق مكان فيه ، ولـكن الأمر لم يكن بالسهل الميسور ، فأفلح البعض فى هذا ، ولـكن من وثب قتله المسلمون لأول جولة ، وقتل على بن أبى طالب عمرو بن عبدود ، وضيق على عكرمة بن أبى جهل الخناق حتى نكص على عقبيه ، وفر ملقيا حتى برمحه ليسرع فى الفرار .

ولم تنجح محاولة التسرب ليلا ، فقد كانت أحراس المسلمين متيقظة .

وما دام القتال لم ينجح ، فليحاول المتحالفون المـكر والخداع ، وهنا بدأت السياسة تلعب دورها ، وكان أول من حاولها حُيى بن أخطب ، صاحب مشروع يوم الخندق ، فجاء بنى قريظة ، ولازال بزعيمهم كعب بن أسد ، حتى رضى كعب أن ينقض صحيفته مع المسلمين ، وأن يبرأ ممـا كان بينه و بين محمد ، وكان هـذا أخطر مافى المعركة ، لأن انضمام بنى قريظة للأحزاب ، كان يأتى بهؤلاء إلى مقربة من يثرب .

وانصرف النبى عندما عرف باتفاق بنى قريظة والأحزاب ، إلى أن يقاتلهم بسلاحهم ،

والسياسة سلاح يحسنه المسلمون أيضا ، ووعد النبي بني غطفان ـ على ما جاء فى بعض الروايات ـ بثلث تمر المدينة ، على أن ينصرفوا ، ووعد محمد أبعث على الاطمئنان ، ففيه ضمان أكثر من وعد يقطعه على نفسه شيخ يهود خيبر ، فكانت هذه أول ثغرة تشق فى صفوف المتحالفين ، ثم بعث النبى من أوقع الشر بين بنى قريظة وقريش ، الأولون يطلبون رهائن من حلفائهم قبل أن يقاتلوا محمدا ، والآخرون يطلبون منهم الخروج إلى القتال يوم السبت ، وهو يوم لا يعمل فيه اليهود شيئا ، حتى ولا كسب المال ، فوقع بين الأحزاب الخلاف ، وبدأت نفوسهم تمتلىء بالشر.

وبعث الله عليهم الريح فى ليلة شاتية شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم ، وتطوح آنيتهم ، فلم تستطع الأحزاب مقاما ، وتهيأت قريش وغطفان للرحيل ، وانشمرت غطفان راجعة إلى بلادها .

كل هذا فى ليلة واحدة « وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً » (الأحزاب آية ٢٥ مدنية) ، ونجحت السياسة التى اتبعها المسلمون ، ثم قواها الله سبحانه وتعالى من عنده .

غزوة بنى قريظة

وانصراف الأحزاب عن المدينة يطلق المسلمين ولا شك للعمل ، وللعمل السريع الحاسم ، فقد كان هجوم قريش وحلفائها يتطلب هجوما مقابلا من المسلمين فى أية جهة من مسرح الحرب ، فلما كان الغد واطمأن النبى أن الأحزاب تدولت وجوهها شطر بلادها ، بات لزاما عليه أن يحاسب بنى قريظة عسيرا ، فأمر المسلمين بالتوجه لحصار بنى قريظة ، على أن لا يصلوا العصر إلا فى حصون اليهود .

ولكن حصون بنى قريظة كانت منيعة ، ولبث المسلمون يحاصرونها خمسا وعشرين ليلة ، والفريقان يتراميان بالنبل والحجارة من مرمى غير قريب ، دون أن تلتحم مشاة الفريقين ، ولكن ما هكذا قال النبى ، وتقدم « على » الصفوف وحمل لواء المسلمين ، ثم نادى كتيبة الإيمان ليتبعوه ، واقتحم المسلمون حصن كعب بن أسد ، أقوى حصون بنى قريظة وهم يُكَبِّرُون ، فأزالوا بابه ، ورضى اليهود التسليم بلا شرط حين أيقنوا بالهلاك ، ونفذ النبى فى بنى قريظة

حكم سعد بن معاذ ، الذى اختاروه من أنصارهم الأوس ، وكان أن رأى سعد القضاء فيهم ، فأعدم

الرجال ، وقسمت الأموال،وسبيت النساء والذرارى ، وقد بيع ماغنم من بنى قريظة فى نجد، واشترى به المسلمون الخيل، للإكثار من هذه القوات الخفيفة الحركة فى جيشهم .

والواقع أن المسلمين قد غنموا الكثير من بنى قريظة ، وبالرغم مما وزع على المهاجرين ، فأغناهم عن مساعدة الأنصار لهم فى العيش ، وما قسم مثله على الأنصار من المنازل والمزارع ، بقى الكثير فى بيت المال، كدعامة للدولة الفتية، التى كانت فى حاجة شديدة إلى الأموال، التى تعاون فى تنفيذ المشروعات المهمة فى الحجاز وأطراف الشام . «وَأَنْزَلَ الذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَؤُهَا ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرا » الأحزاب ٢٦ و ٢٧ .

* * *

على أن الذى يعنينا فى الواقع من غزوة بنى قريظة ، هو أن النبى عليه الصلاة والسلام قد أكمل وحدة المدينة ، وأخلاها من أية قوات معادية للمسلمين .

وكان تأثير هذا كبيرا فى المنافقين ، فلم تقم لهم بعدها قائمة ، ولم تعد تسمع لهم أية ضجة ولاجدل ، وكان تأثيره أكبر فى القبائل العربية من قريش وغيرهم، لأنها بدأت تدرك عن يقين و إيمان أن هذه الدولة الفتية الجديدة تكتسح كل شىء فى طريقها ، وأنه يجب أن تعمل القبائل على الحياة إلى جانبها، بل وفى كنفها لو شاءت البقاء ، بل تعدى هذا إلى أنها لم تتمكن مرة أخرى من الوقوف فى وجه المسلمين لافرادى ولا جماعة .

ما بعد الخندق

على أن انصراف الأحزاب يوم الخندق فى غلس الليل ، وتفرقهم على لا شىء ، دون أن يصل كل من الجانبين المتضادين إلى غرض حاسم ، بالقضاء على القوة الأساسية للخصم ؛ أى القوة التى فى ميدان القتال كان بلا شك نصرا للمسلمين ، ولكنه نصر موقوت ببقاء هؤلاء الناس متفرقين ، وهو أمر لم يكن للمسلمين أن يطمئنوا إليه ، فلما كان القضاء فى بنى قريظة بما أصدره الحكم الذى تخيروه بأنفسهم ، بدا أن اليهود لا بد مجددون سعاياتهم لإثارة العرب على المسلمين ، و إذن فلا تزال الشقة بعيدة بين المسلمين و بين الهدوء والاطمئنان ، والحذر أمر لامفر منه ، وما دامت قريش ومن ورائها العرب كلهم يتربصون للمسلمين ، فليعمل محمد ، وليعمل مرة أخرى كما عمل بعد أحد من قبل ، ولكنه إن كان فى المرة الأولى قد عمل بسرعة للدفاع عن قدرة المسلمين على القتال ، ومقابلة الاعتداء بمثله ، ولكنه فى هذه المرة يجب أن يعمل ليؤكد النصر المعنوى ، الذى حصل عليه فى الخندق ، وليأخذ خصوم الإسلام والمسلمين فرادى ، قبل أن يأخذوهم فى جماعة واحدة ، وما دام قد سمع بأن فى قريش حركة ، فليعمل على مقربة من مكة ، وللمسلمين على ما نذكر عند بنى لحيان ثأر قديم ، فهم الذين قتلوا حبيب بين عدى وأصحابه عند ماء الرجيع (الستة الذين أرسلهم النبى مع بنى عَضَل ، ليعلموهم الإسلام) .

ولكن هل يقصد محمد طريق مكة ، فيولى وجهه شطر بنى لحيان مباشرة ، والله إنه لن يفعل هذا ، و إلا فأين عامل المفاجأة إذن فى هذه المعركة الهجومية الجديدة ؟ ولهذا فليبد غير ما يقصد ، و إذن فليتجه إلى الشام ، ولينصرف مجدا السير إلى الشمال ، فإذا أمن أن الناس قد اطمأنوا لإدراكهم أنه سار شمالا وانصرف عنهم ، دار دورة عاجلة ، وأخذهم على غرة . وقد كان ، إلا أن قوما رأوه وهو ينحدر للجنوب ، فنقلوا النبأ إلى بنى لحيان ، ولا قدرة

لهؤلاء على قتال المسلمين ، فليجعلوا أنفسهم بمنأى عن جيش المسلمين، وهكذا اعتصموا برءوس الجبال ، وهكذا أفلتوا إلى حين .

ولكن إذا كان هؤلاء قد أفلتوا إلى حين ، فلا أقل من أن يبعث بعض الجند إلى قرب مكة ، لكشف نيات القوم ، ولإظهار قوة المسلمين ، فوصل أبو بكر فى مائتى مقاتل إلى عُسفان ، ثم كر راجعا فلحق بالنبى .

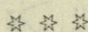
وأقام النبى أياما تعد على أصابع اليد الواحدة ، وقبل أن يتزود للخروج ثانية أغار جمع من الأعراب تحت أمر عيينة بن حصن على أطراف المدينة ، فقتلوا رجلا ، واحتملوا امرأته ، وساقوا ما كان فى رعايتهما من إبل ، ثم جدوا فى السير ، يظنون أنهم قد أفلحوا فى النجاة ، ولكن رجلا هو سلمة بن عمرو بن الأكوع بصر بهم ، وجد فى السير ، يرميهم بالنبل وهو يصيح ، منبها المسلمين الذين فى أطراف المدينة ، و بلغ النبى صياحه ، فبعث بالخيل لتلحق به ، وسار النبى بباقى الجند ، ووصل النبى إلى الجبل بذى قَرَد فوجد فرسانه قد أنقذوا المرأة ، واستخلصوا بعض الإبل ، وخسروا رجلا ، هو محرز بن نضلة ، ولكن بثمن ليس بالقليل ، وقال سلمة لو سرحتنى يا رسول الله فى مائة رجل ، لاستنفذت بقية السرح ، ولكن عيينة ورجاله كانوا يجدون فى السير قاصدين بنى غطفان ، ووازن النبى بين العودة بلا قتال وقد حصل على بعض غايته بانقاذ المرأة المسلمة و بعض إبلها ، لاسيما وأنه لم يخسر إلا قتيلا واحدا ، و بين أن يقاتل بنى غطفان وهو فى غير قوة ، ومن يدرى ماذا يمكن أن يحدث ؟ فأجمع النبى أمره وعاد بالمسلمين إلى المدينة .

ثم مر شهران .

وشهران ليسا شيئا فى تاريخ الأمم ، ولكنهما فى تاريخ قتال الفئة الباغية شىء كثير ، فقد كان مرور الأيام على القبائل دون أن يبدل محمد والمسلمون أمنهما خوفا ، يزيد من إعمالهما

الفكر للشر والإيذاء ، وكان هذا الخطر هذه المرة أيضا قادما من جهة مكة، فإن بنى المصطلق كانوا يتجمعون حول الحارث بن أبى ضرار ، وترامت الأنباء إلى النبى بهذا الحشد الجديد وبما يقوم به بنو المصطلق من تحريضهم على قتال المسلمين وقتل محمد .

ومرة أخرى نلتقى الحرب والمكر والخداع ، فقد أعد محمد ترتيباته الهجومية سرا ، وولى أبا بكر لواء المهاجرين ، وجعل لواء الأنصار لسعد بن عبادة ، ثم سار ليلا حتى نزل على ماء يقال له المُرَيْسِيع ، وأحاط المسلمون ببنى المصطلق و بعض ممن كان قد انضم إليهم من العرب ، وقتل عشرة من بنى المصطلق لأول جوله ، فلما رأوا أن ضغط المسلمين من حولهم شديد ، سلموا فاقتيدوا أسرى ، وغنم المسلمون متاعهم . وفى هذه المرة أيضا نرى محمدا يعنى وحده بأمر الوقوف عند الماء ، عصب الحرب فى الصحراء .



ولا نجد فى حديث هذه الغزوات شيئا من الناحية العسكرية إلا انصراف النبى عليه الصلاة والسلام إلى الدفاع الهجومى ، فهو لا يهاجم معتديا ، و إنما هو يدافع عن المدينة وعن المسلمين بأن يهاجم الكفار قبل أن يحتشد جمعهم ، وقبل أن يجمعوا أمرهم .

والأمر الثانى هو استناد تكتيكات النبى إلى عامل المفاجأة ، أبرز أصول الحرب التى استخدمها فى قتاله .

على أنه قد يكون لزاما علينا ونحن ندرس تاريخ هذه الفترة ، أن نقف عند قصة الشقاق الذى حاول أن يسببه عبد الله بن أُبىّ بقوله : (لقد كاثرنا المهاجرون فى ديارنا، والله ماعدنا و إياهم إلا كما قال الأول سمن كلبك يأ كلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) ، وهى قصة تروى مطولة ضافية فى كل كتب السيرة ، وقد تحمل هذه القصة مظهرا من مظاهر الشقاق السياسى والعسكرى، الذى يمكن أن يحدث بين المسلمين وهم لازالوا حفنة من الرجال فى مهب العاصفة ، والنبى كزعيم يعمل للوحدة يمكن أن يعالج بالبتر ،

ولـكن هل يأمر النبى بقتل عبد الله بن أبى، برغم أنه سيد قومه الخزرج ؟ ولو رأى النبى هذا لما تردد ابنه نفسه فى أن يقتله ، ولـكن هل يمكن أن يحول محمد دون أن يتحدث الناس بقولهم : (ان محمدا يقتل أصحابه) إذن فليصبر محمد على مضض ، ولـكن ما قاله عبد الله بن أبى قد نقل إلى المهاجرين ، وجرح اللسان لاتؤسى مقاطعه ، و إذن فليشغل محمد عليه الصلاة والسلام الناس عن الحديث والنقاش ، فأجهدهم فى السير ، فلما وصل النبى إلى المدينة، واستراح الناس من وعثاء السفر ، تغافلوا عما حدث على الطريق أو تناسوه ، وأدرك الخزرج أن النبى قد أوكل أمر صاحبهم إليهم ، فكانوا هم الذين إذا حدث الحدث يعاتبونه و يأخذونه و يعنفونه (ابن هشام جزء ٣ صفحة ٣٠٥ طبعة الحلبى)

- ١١ -

فترة الهدوء ومهادنة قريش

وكانت السنة السادسة لهجرة محمد من مكة قد أشرفت على نهايتها ، وست سنوات فى حياة الأفراد أمد ليس بالقصير ، ولهذا كان من حق المهاجرين أن يحسوا بالحنين إلى مكة ، وأن يحس المسلمون من المهاجرين والأنصار بالحنين إلى البيت الحرام ، البيت الذى يولون وجههم شطره ، والقبلة التى ارتضاها نبيهم ، فولاه الله إياها ، ولكن أين السبيل إلى هذا وقريش تسد الطريق إلى الحج ؟ ووصول المسلمين إلى قلب مكة لن يكون بغير قتال قريش ، وبغير إجلائها عن مكة ، إلا إذا تغيرت الأرض غير الأرض ، وتبدّل الناس غير الناس ، فاذا لم تسد قريش طريق المسلمين إلى مكة ، فلِمَ إذن كان هذا الصراع الطويل ؟

وكان لحنين المسلمين إلى مكة وإلى حج البيت العتيق ، صدى عند رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولعل أمر هذا الحنين كان يشغله وكان موضع تفكيره ، فلما أقبل ذو القعدة للعام السادس من الهجرة، حدّث النبى المسلمين بأنهم سيذهبون من عامهم إلى البيت الحرام ، للحج لا للقتال ، ولن يكونوا وحدهم، بل سيكون معهم من شاء من الناس ، وأنفذ محمد رسله إلى القبائل يدعو الناس إلى الحج ، ويعلمهم أنه سيخرج فى الشهر الحرام آمنًا المسلمين، حاجا لا غازيا ، وأنه لن يذهب بالمسلمين وحدهم، بل وسيذهب معه فى جمعه من شاء من العرب ، ولتفعل قريش ما تشاء ، فانه إن كان لها الحجابة والسقاية وحراسة بيت إبراهيم ورعايته والعناية به ، فليس لرجل من قريش كائنا من كان ، ولا لقريش كلها أن تحول بين حج بيت الله الحرام ، والحج فريضة فرضها الاسلام كما فرضتها أديان العرب قبل الإسلام بقرون ، وليس لقريش أن تشك، وإن تشك فإن المسلمين سيخرجون محرمين لا فى عدة القتال ، وكل ماسيحملون معهم لوحشة الطريق سيوف مغمدة فى قربها .

وخرج محمد بالمهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب والأعراب . واختلف

الرواة فى عددهم ولـكن لن يقل ما قيل عن سبعمائة ، ولم يزد على ألف وخمسمائة ، ولـكن الأقرب إلى الصحيح أنهم كانوا أدنى عددا إلى التقدير ، فقد كانت جملة الهدى سبعين بدنة . كل بدنة لعشرة أفراد .

وأحرم الناس كلهم عند ذى الحليفة ، على بعد ستة أميال من المدينة ، ثم بدءوا يُجِدّون السير نحو مكة ـ وهم لا يعرفون من أمر قريش شيئا ، ولـكنهم خرجوا لله ، ومن خرج لله فهو حسبه .

ولم تكن مكة هادئة آمنة ، كانت الأنباء قد ترامت إلى قريش بما اعتزم المسلمون ، وراح شيوخها يقلبون الأمر على مختلف وجوهه ، ولـكن ما كان لهم أن يصدقوا أن الحج هو القصد ، ولم لا يكون هذا حيلة أراد بها المسلمون أن يفضوا مكة عليهم عنوة ، فإذا كان هذا ، ولا يمكن أن يكون غيره ، وما الإحرام وما الدعاية الطويلة فى مختلف أوساط العرب عن الخروج لأداء الفريضة إلا حيلة ، وهى الحرب والمكر والخداع ، وإذن فليكونوا الاعلى حذر وحسب ، بل وليمنعوا محمدا والمسلمين ومن جاءوا معه من العرب ، إلا أن يكونوا من أصحاب الأصنام ، فليكن قتال إذن فى الشهر الحرام . ولـكن يجب ألاّ يفض محمد عليهم مدينتهم ، ويجب ألاّ ينتظروه عند مشارفها ، بل فليتصيد محمدا والمسلمين جمع كبير من فرسان قريش خارج مكة ، يردونهم عن قصدهم . ولـكن فليتدبر هؤلاء الأمر مليا ، فإن قتال المسلمين شىء ، وقتال أبناء مكة الذين جاءوا للحج ولرؤية أهليهم وعيالهم شىء آخر . وعجم شيوخ قريش عيدانهم عودا عودا ، فتخيروا أصلبها ، وولوا الأمر رجلين هما خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل ، فى مائتين من الفرسان سيروهم إلى ذى طوى ، تاركين لهما أمر منع محمد والمسلمين من دخول مكة .

وترامى النبأ إلى النبى . وقد يكون فرسان خالد قوة أو لا يكونون . ولـكن النبى ما جاء لقتال أحد ، فهو قد قصد مكة ، وإذن كان لزاما عليه أن يفعل شيئا ، وأن يعمل بسرعة ، على أن تكون مكة وجهته ، وما عليه من بأس إن هو احتال فى هذا ، فكان أن غيّر الطريق ، حتى لا يصطدم بفرسان خالد بن الوليد ، وقطع المسلمون أرضا وعرة دفعت بهم إلى الحديبية من أسفل مكة .

وأدرك خالد أن المسلمين قد غيروا طريقهم ، بعد أن طال انتظاره لهم ، فلم يزل جادًا فى البحث ، حتى عرف مكانهم ، فأنبأ به قريشا ، وانتقل دور خالد من قتال تعطيلى ، إلى استكشاف دون اشتباك ، وعرفت قريش أن المعركة التى كانت تتوقعها على بعد من مكة لن تحدث ، وقد بات محمد على قِيد تسعة أميال من مكة ، وهو لا يزال عازما على الحج ، جادًا فى هذا الأمر ، مفوضا كل شئ لله،فماذا يمكن أن تفعل قريش بعد أن أخفقت خيلها فى منعه من الوصول إلى مرمى سهم من مكة ، لا سيما وأن الشهر الحرام قد حل ، ولم يعد فى الاستطاعة القيام بقتال هجومى ، وإلا ففيم كانت إذن تعيب على المسلمين القتال فى الشهر الحرام ؟ ولكن قريشا فى ذات الوقت لاتستطيع أن تترك محمدا والمسلمين يدخلون مكة ، وهم إن دخلوها فى أية صورة ،فكأنهم دخلوها عَنوة ، فماذا يمكن أن تقول العرب فى هذا ؟ بل وماذا يمكن أن يفعل المسلمون ودخولهم مكة على أية صورة يعتبر نصرا وفتحا مبينا ؟.

ورأى شيوخ قريش أن الأمر جِدٌ مُحَيِّر ، وأن إقرار وجهة نظر خاصة ليس بالأمر السهل الميسور ، وإذن فليعجُموا عود المسلمين ، ولتكن بينهم وبينهم سفارة ومفاوضة ، وبدءوا بإرسال الرسل بعضِهم فى أعقاب بعض ، للكشف عن نيات المسلمين ، وعن قوتهم ، ودرجة استعدادهم للقتال ، فمن جاءهم بالحق كذبوه ، وبعثوا غيره ، وبادلهم النبى عليه الصلاة والسلام الرسل، وكان رسوله إليهم عثمان ، بن عفان بعد أن طلب عمر بن الخطاب أن يعفيه من هذا .

وكثر الانتقال بين المعسكرين ؛ وسيطرة القائد على حواسه ، ودقة الضبط والربط بين الأفراد ، ثم المهارة فى إدارة الرجال طول هذه المرحلة من الحرب السياسية، لها كلها أثرها فى تقوية جانبه وإضعاف معنويات خصومه . وقد بدت مهارة محمد فى هذا كله ، فلم تقع حادثة من جانب رجال محمد ، ولم ينجح رجال قريش فى مفاجأتهم قط ، وحتى من حاولوا الاقتراب من معسكر المسلمين أسروا ، ولكن المسلمين لم يجيئوا للحرب ، ولهذا أطلق النبى سراحهم ثانية .

وتأخر رسول المسلمين فى مكة ؛ كان عثمان يجادل شيوخ قريش ، فينظم معهم علاقاتهم بمحمد ، وعلاقات محمد بهم ، ونمى للنبى أن قريشا قد قتلت رسوله ، وإذن فمعنى هذا هو الحرب ، وطلب النبى من المسلمين أن يبايعوه على مناجزة القوم ، وألاّ يفروا حتى الموت ، على أنه لم تكد « بيعة الرضوان » تتم ، وبايع النبى لعُثمان نيابة عنه ، حتى تراءى للمسلمين أن عثمان لم يقتل ، وأنه فى طريقه إليهم ، وجاء عثمان ، فحدث النبى بأمر قريش وحالها ، وأن قريشا ماينها و بين محمد من شىء مادام قد جاء حاجا ، وما عليه من بأس لو قبل لقريش مخرجا ، فانتظر للعام القادم .

و بدأت المفاوضات تنحو منحى خاصا ، لوضع دعائم هدنة ثابتة طويلة الأمد ، يفعل الله بعدها ما يقضى به ، ثم جاء رسول قريش « سهيل بن عمرو » ، فعقد مع النبى الكريم (صلح الحُديبية) ، وكل ما يعنينا منه من الناحية العسكرية ، أنه وضع أسس الهدنة بين المسلمين وقريش ، لعشر سنوات قادمة ، وأن قريشا قد رضيت أن يحج المسلمون فى العام التالى ، وأنهم يجيئون مكة وسيوفهم مغمدة فى قُرُبها ، يحجون و يبقون بها ثلاثة أيام بلياليها .

و إذا كان محمد قد جاء حاجا فإنه لم يحج ولم يطف بالبيت ، و إذا كان المسلمون قد جاءوا للفتح فإنهم لم يقاتلوا ، فلا نصر ولا هزيمة على قياس ما يعرفه المقاتلون ؛ ولكن صلح الحديبية ولا شك كان فتحا عظيما « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً » « الفتح ١ — ٣ » .

وأهم من هذا أن قريشا قد اعترفت بمحمد وبالمسلمين ، فالتعاقد للصلح فى العرف السياسى ، لا يكون إلا بين ندّين متماثلين فى الكيان السياسى ، فالدولة لا تصالح الثوار الخارجين عليها ، والإمبراطورية لا تهادن مستعمراتها أو ممتلكاتها الثائرة على سلطانها ، الخارجة على حكمها ؛ والقانون الدولى وليد تطور العالم منذ فجر البشرية فى قرون وافرة العدد ، فالعرف فى التماثل الاستقلالى بين المتعاقدين أمر قديم ، وليس بالحديث المبتدع ،

فإذن كان هذا الصلح وثيقة تثبت أن قريشا ، وفيها سادات العرب ، قد اعترفت بقيام الدولة الإسلامية فى قلب الجزيرة ، فأى نصر بعد هذا ، وأى فتح يطمع فيه المسلمون أكثر مما أدركوا .

على أن لهذا الصلح من ناحية الإسلام والمسلمين أثرا آخر ، هو أنه قد وضع حدا للحذر من قريش ، والتأهب لملاقاتها فى كل وقت ، وبذلك استطاع محمد عليه الصلاة والسلام أن ينفض يديه من أمرها ، وأن يتجه إلى ما هو أبعد من هذا ، فيفكر فى أمر اليهود تفكيرا جديا ، لوضع حد لما يمكن أن يقوموا به ، كما مكنه من أن يتجه إلى أداء رسالته بنشر الإسلام .

خيبر والقضاء على سلطان اليهود

فى بلاد العرب

كان اليهود فى الواقع الخصم الأقوى للمسلمين ، فلم يَقِف إجلاء اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير عن يثرب ، ثم سحق قوات بنى قريظة بعد فتح آطامهم عَنوة ، من سعايات اليهود لإثارة البطون العربية على المسلمين ، وإن كان ذلك ولا شك قد هد من أركانهم ، وارتعدت لقوة الإسلام الفتية فرائصهم .

ولكن هذا الإجلاء من يثرب قد زاد فى قوة يهود خيبر ، كما زاد فى أولئك الذين نزلوا فَدَكَ ، أو حطوا رحالهم فى تيماء وأم القرى .

وكما كان أمر اليهود يشغل بال النبى ، كان اليهود أنفسهم يفكرون فى أمر هذه الدولة الفتية ، التى قامت تهد من كيانهم ، وكان لزاما عليهم بعد إخفاق الأحزاب أن يخطوا خطوة جديدة ، وهم أهل حرب ، ولهم بفنون القتال خبرة ، ففيم السكوت إذن عن تأليف جبهة متحدة من البطون اليهودية فى بلاد العرب ، للزحف على يثرب وقتال المسلمين ؟ والمال عصب الحرب ، ومن يمكن أن يكون لديه من المال أكثر مما لدى اليهود ؟ ولهذا يمكن أن ينجحوا فيما أخفقت فيه الأحزاب يوم الخندق .

وقد حاول بعض المؤرخين أن يقولوا إن اليهودَ لم يفكروا فى تأليف كتلة قوية للغزو ، بل كان قصدهم أن يوجدوا حلفا بينهم ، يخافه محمد ويخشاه المسلمون ؛ فلا شك أن هؤلاء ينقمون عليهم ، بتحريضهم قريشا وغطفان وغيرهما من البطون العربية لغزو يثرب ، وأن هذه الكتلة اليهودية ، إنما أريد منها المحافظة على كيان اليهود فى بلاد العرب ، فهو حلف دفاعى لا هجومى ، وهو مثال مما تفعل أكثر الدول مدنية اليوم .

ولكن الواقع أن اليهودَ كانوا قد أجمعوا على الغزو ، ولكنهم كانوا يتحينون أحسن الفرص لهم ؛ فهم أهل حرب ، وليسوا جديدين على الدرب ، وترامت الأنباء إلى النبى

من أوثق المصادر ، فلم يتعجل الحرب ، فهو لايستطيع أن يقاتل فى جبهتين فى وقت واحد إلا إذا أمن إحداهما . وهنا نخرج من محمد القائد إلى محمد النبى ، فالنبى ليس رسولا للغزو ، وإنما هو نبى له رسالة يجب أن يعمل على نشرها ، وهو قد بعث به رسولا مبشرا ونذيرا للأمم كافة ، فكيف يبعث إلى الناس قبل أن يجمع أهل شبه الجزيرة كلهم على دين واحد. فإذا نظرنا إلى غير المسلمين من العرب وجدنا طائفة يمكنه أن يصابرها و يترفق بها ، حتى يستجيب أهلها لدعوته ، وهؤلاء هم قريش ومن يدينون لهم بالولاء والسيادة الروحية من سائر العرب ، وطائفة هى أقوى بأسا وأوفر مالا ، ولا أمل فى أن يعتنق أهلها الإسلام ، وهى طائفة اليهود ، والتجارب الأولى مع بنى قينقاع و بنى النضير ، ثم مع بنى قريظة، قد أثبتت أن اليهود أشد تمسكا بيهوديتهم ، من تمسك قريش وغيرها من البطون العربية بالشرك وعبادة الأصنام .

إذن فليوجه كل جهده فى القتال إلى اليهود ، وليبدأهم قبل أن يبدءوه ، وليفاجئهم قبل أن يكونوا فى قوة .

وهكذا ما انتهى النبى من قريش بصلح الحديبية ، حتى عاد إلى المدينة ، فمكث بها ليالى قليلة ، قيل عدتها أقل من عشرين ليلة ، ثم جد فى السير من حضر الحديبية لغزو خيبر .

ولعل اليهود كانوا قد تحسسوا شيئا من هذا ، لأنهم بعثوا إلى حلفائهم وجيرانهم من بنى غطفان ، ليقفوا إلى جانبهم فى المعركة القادمة ، ووعدوهم نصف ثمار خيبر لعام كامل ، وهذا ثمن ليس بالقليل . ولكن بطون غطفان من فزارة وغيرها ، ما كادت تفكر فى الحرب حتى كانت طلائع جيش المسلمين من راكبى الخيل قد بدت ، فأجمعوا على ترك يهود خيبر لجدهم .

وفوجئ اليهود حقا بخروج المسلمين لغزوهم فى عقر دارهم ، وربح المسلمون نصف المعركة دون أن يقذفوا بسهم ، بل كسبوا هـــذا بعامل المفاجأة وحده ، فقد أجمع اليهود

على أن يقاتلوا فى معركة دفاعية ، وانتهوا إلى أن يتحصنوا فى حصونهم التى فى أعلى الجبال .

وجمع النبى الكريم عندما أشرف على خيبر كل ماوصله من أنباء القوم ، وصور لنفسه صورة تخطيطية سريعة للموقف ، فى استكشاف شخصى ، فعرف أن اليهود يحتمون بأربعة حصون ، هى (الوطيح) و (السلالم) و (ناعم) و (نطاة)، كما كانت لهم على مايقول الدكتور إسرائيل ولفنسون حاميات أخرى فى منطقة الشَّق فى حصن أبى (حصن بنى أبى الحُقيق) على جبل شمران ، ثم فى حصنى القموص والزبير فى منطقة الكتيبة .
وترامت الأنباء — وقد صدقت — بأن اليهود قد أسكنوا العيال واختزنوا الأموال ، فى حصنى الوطيح والسلالم ، واختزنوا العتاد وأدوات الحرب فى حصن ناعم . أما المقاتلة وأهل الحرب — فيما عدا حاميات الحصون الثلاثة الأولى — فكانوا فى حصن نطاة .

وقدر محمد موقفه ، وقرر أن العدو قد يتركه يهاجم أيا من الحصون الثلاثة الأولى الضعيفة ، ثم يخرج إلى مؤخرته ، أو قد يحاول الخروج لقتاله فى الميدان المكشوف ، فليحرم اليهود إذن قوة المناورة ، وليحصرهم ليقاتلوا لامفر لهم إلا فى دفاع مستميت ، قد انتزعت منهم كل فرصة للهجوم المضاد .

وبدأ النبى معركة الحصار فى قتال عنيف ، قريب المرمى ، متصل الاشتباك ، واليهود يستميتون من أجل كل شبر من الأرض لاينزلون عن شىء إلا إرغاما ، وقد حاولوا الخروج من حصن (ناعم) فدحرهم الخزرج وردوهم نحو الحصن ، ليحتموا وراء جدرانه القوية .

وطال الحصار ، وهو أمر أكثر إجهادا إلا لمن يقيمون وراء الأبواب لا حيلة لهم فيما يتساقط عليهم ، ولكل جهد نهاية ، وهكذا بدأت الحصون تسقط واحدا إثر الآخر ، بعد معارك دامية ، أفاضت مطولات كتب السيرة فى ذكر قصص البطولة الفردية للمسلمين فيها ، كما حدث من على بن أبى طالب واقتحامه لحصن ناعم .

ولكن الذى يعنينا من هذا الحديث هو أن المسلمين قد أدركوا أن حرب الحصار حرب تطول ، وأن المُحاصَرِينْ ماداموا يجدون الغذاء والسلاح ، لاينزلون عن القتال ، وأن

الحرب هى حرب تموين ، كما هى صراع بالسيوف والحراب ، فلما استعصى حصن الزبير على المسلمين قطعوا المـاء عن حاميته ، وكان الماء يجرى إليه فى بطن الأرض ، فأرغم من به من اليهود على الخروج ، محاولين القتال فى الميدان المـكشوف ، فلماهزموا ارتدوا إلى حصن آخر من الحصون التى لا تزال تقاوم .

***

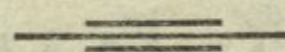
على أن الانتصار على يهودخيبر كان له أثر عسكرى كبير ، فى القضاء على استقلال بقية البطون اليهودية التى فى الحجاز ، ففى أثناء حصـار خيبر بعث النبى ببعض من رجاله إلى فدَكَ فى شمال خيبر ، يدعون أهلها إلى الإسلام أو التسليم فى أموالهم ، ولم يكن أهل فدَكَ بعد ما سمعوه من أنباء خيبر بمستطيعين القتال ، فصالحوا النبى على نصف أموالهم بلا قتال .

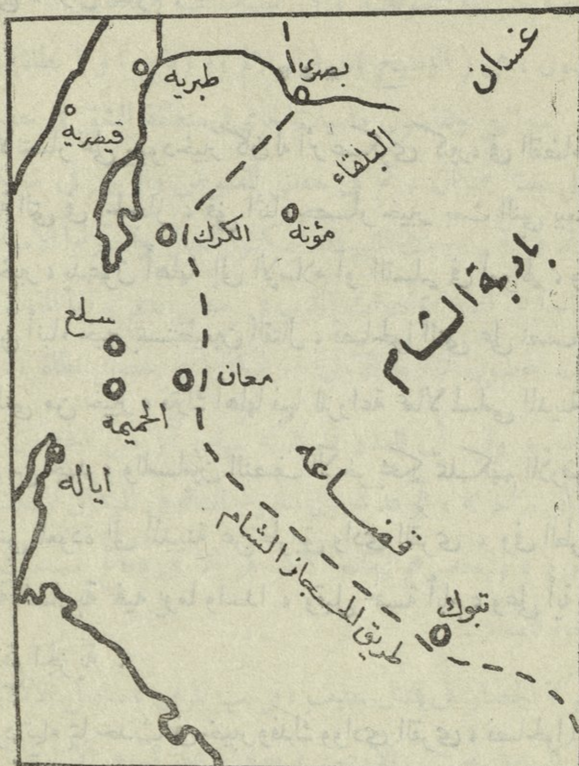
وانتهى النبى من خيبر ، فترك أهلها فيها للزراعة عمالا لمسلمى المدينة ، لهم نصف الثمار أجرا لما يبذلون من جهد ، وللمسلمين النصف الآخر بحكم تملكهم للأرض بالفتح .

ثم تهيأ النبى للعودة إلى المدينة عن طريق وادى القُرى ، وفى الطريق قاتل المسلمون البطون اليهودية الضاربة فيه يوما واحدا ، وقيل خمسة أيام ، وعلى أية حال انتهى القتال بقبول اليهود دفع الجزية .

وسمع يهود تيماء بما حدث فى خيبر وفَدَكَ ووادى القُرى ، فصالحوا النبى على الجزية .

وانتهت هذه الرحلة ، التى طالت لشهور فى حديث أكثر كتاب السيرة ، فقد قال ابن عباس إن النبى أقام فى خيبر وحدها ستة شهور ، سواء أطال الأمد أم قصر ، فقد انتهى الأمر بأن تخلص المسلمون من أخطر وأقوى خصم لهم فى جزيرة العرب ، خصم مسلح بالمال والدهاء ، أقوى سلاحين فى قتال الأمم والجماعات .




غسان
بصرى
طبريه
قيصريه
البلقاء
مؤته
الكرك
بادية الشام
سلع
معان
الحميمه
اياله
قضاعه
طريق الحجاز الشام
تبوك

نحو الشمال

— ١٣ —

نحو الشمال

وكان النبي قد فرغ من قريش بعهد الحديبية ، ثم أكد هذا خروجه فى نهاية العام إلى مكة للحج ، على ما اتفق عليه الطرفان يوم الحديبية ، وجلاء قريش عن مكة والبيت الحرام ، تاركة كل شيء المسلمين ثلاثة أيام بما فيها ، وقد تركت لهم المكان ليفعلوا ماشاءوا ، إلا أن يهدموا الأصنام ، ولكن هؤلاء لم يرتكبوا فاحشة ولم يسكبوا خمرا ، بل طافوا بالبيت العتيق يتصايحون لا بصيحة الحرب ، بل بقول (لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده، وأعز جنده ، وخذل الأحزاب وحده) ، ثم وقف بلال فأذن للصلاة بين أصنام الكعبة ، والبيت لله ، وحيثما قامت الصلاة فهي لله الواحد القهار .

ولعل شيوخ قريش قد بهرهم اتباع جند المسلمين وطاعتهم لقائدهم ورسول الله إليهم ؛ فلم يحركوا ساكنا . فلما انقضى الموعد خافوا أن يتأثر الناس فى مكة مما يشهدون — وهم فى المشارف التى تطل على مكة والبيت الحرام — من قوة إيمان المسلمين ، فبعثوا برسولين إلى محمد عليه الصلاة والسلام يقولان له : « إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا » .

وخرج محمد بالمسلمين .

ولكن هذا العرض العسكرى الرائع كان كبير الأثر ، فما وصل محمد إلى المدينة أو كاد حتى كان بناء قريش قد تَصَدَّعَ ، ورأى الناس فى مكة أنه لا يمكن أن تكون كل هذه القوة التى فى المسلمين لأنهم أصحاب قتال وحسب ، وإنما هى الشيء آخر أبعد أثرا وأقوى ، ولكن النفوس برغم ما تطرق إليها بقيت متماسكة إلى حين ، ومع هذا فقد أجمع خالد ابن الوليد فارس قريش أمره على الإسلام ، وتبعه عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة ، وغيرهم من الناس .

ولسنا هنا فى مقام التسجيل للتاريخ وحده ، ولهذا لايعنينا أن نتعقب أمر

ابن العاص فى الفترة التى تلت حياة النبى ، ولا مايدور حوله بعض كتاب الشيعة من أن دهاء عمرو هو الذى أخرج أمر المسلمين من خلافة بالمبايعة إلى ملكية قائمة يتوارثها الأبناء عن الآباء ؛ ما يعنينا هذا فى شىء ، ولكن الذى يعنينا هو فى الواقع أن المسلمين قد كسبوا فى خالد وعمرو بن العاص قائدين كبيرين ، كان لهما نصيب موفور فى الفتوح الإسلامية بعد وفاة رسول الله .

ولكن إذا كان النبى قد انتهى من أمر قريش على ما يحب ، وهو لايشك إطلاقا فى أن المسألة مسألة وقت ، حتى تفتح له مكة أبوابها إن طوعا و إن كرها ، فقد بات لزاما عليه أن يتجه إلى خارج الحدود الطبعية لبلاد العرب ، ولم يكن هناك إلا الشمال فقد كانت اليمن قد أذعنت لدعوته .

على أن النبى شغل حينا بالبعوث يرسلها لدعوة الناس إلى الإسلام كبنى سُليم ، و بإرسال السرايا لمعاقبة من كانوا قد غدروا بالمسلمين من قبل كبنى مرة ، ولم تكد الأيام فى سيرها تكمل أشهرا قليلة حتى حشد النبى جمعا من المسلمين ، وصل مقداره إلى ثلاثة آلاف مقاتل ، وبعث بهم إلى الشام ، وخرج فيهم خالد بن الوليد متطوعا للجهاد .

وكانت التدابير الأولى لمعركة « مُؤْتَة » تتم فصولا .

ويختلف رواة التاريخ فى سبب إرسال هذا الجيش إلى الشام ، لاسيما وأنه فى قوة لا يمكن أن تفتح قطرا كبيرا كالشام ، ولا أن تهزم جنود هرقل ملك الروم ، والقتال ضد دول النصرانية ليس كالقتال ضد قريش ، معركة مناورة يعقبها اصطدام فى قتال قريب ، ثم افتراق على موعد أو على غير موعد ، فالأمر موكول للمقادير ، فالقتال ضد الروم معناه الوقوف موقف العداء من دولة لها سلطانها ، ولها من ماليتها ما يمكن من تعبئة الجيوش الجرارة ، وما نظن أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان فى قوة تمكن من هذا ، ونصف العرب لايزالون ضده ، والأمر الآخر هو أن النبى عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يبعث بخيرة جنده إلى معركة تعتبر من الناحية المنطقية خاسرة حقا لو كان غرضها هو غزو الشام ، ولهذا يكون مقبولا أن يقال إن النبى أرسلهم لغزو « بُصْرَى » ، ولتأديب واليها — للأخذ

بثأر رسول النبى إلى عامل هرقل فى تلك المدينة ، سواء أكان القتل صدر بأمر هرقل أم بأمر الوالى .

وقد يكون لزاما علينا ألاّ نترك جيش المسلمين يتحرك من المدينة ، والنبى عليه الصلاة والسلام يودع الناس إلى ظاهرها ، دون أن نقف أمام أمرين مُهِمَّيْن :

الأول : تعيين القادة .

الثانى : دستور نبى المسلمين فى حقوق غير المحاربين .

أما الأمر الأول فقد استعمل النبى على الجيش زيد بن حارثة ، ثم قال : « إن أُصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رَوَاحة على الناس » . فكأن النبى قد عين للمسلمين ثلاث طبقات للقيادة ، ولعله ترك ما بعدها لمشاورة المسلمين بعضهم بعضا .

أما الأمر الثانى فقد رسم النبى لجنده ، وهم بعد فى أول مراحل غزو الأمم الضاربة على حدود بلاد العرب ، دستورا لم تعرفه أكثر الأمم مدنية ، إلا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا من وفاة النبى ، وإن كانت لا تحترمه برغم تسطيرها له ، هذا الدستور هو أساس حقوق غير المحاربين من الشيوخ والأطفال والعُزْل من السلاح ، فقد أوصى النبى المسلمين ألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان ، وألا يهدموا المنازل ، وألا يقطعوا الأشجار ، أوصى النبى جنده بهذا ، وكلهم رجل يقاتل للدين ، وقد ملكت حرارة الإيمان عليه كل حواسه حتى إنه لا يهمه إلا أن ينطلق ، فإنما هى إحدى الحسنيين ، فإما ظهور وإما شهادة .

ورسم النبى الكريم فى هذه السطور ما صورته دول أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين فى عدة مؤتمرات ، ثم لم تتبع ما انتهت إليه من تعهدات ، حتى الدول التى وقعت هذه التعهدات .

***

وسار المسلمون صوب الشمال يجدون فى السير ، علهم يصيبون من خصمهم فرصة إذا

نجحوا فى مفاجأة القوم ، ولكن الأنباء كانت قد بلغت الشام قبل أن يصل المسلمون إلى تخومها ، ولم يكد المسلمون يصلون إلى مَعان ، حتى كان عامل هرقل على الشام قد جمع الجموع للقائهم . وهنا يختلف الرواة فى تعداد جيش الروم اختلافهم فى شخصية الرجل الذى كان يقودهم ، وقد وصل الحديث إلى أن قيل إن جيش الروم قد وصل إلى مائتى ألف ، نصفهم من جند هرقل ، ونصفهم من القبائل الضاربة فى الشام ، كما قيل إن « هرقل » نفسه كان يقود الجيش ، وفى رواية أخرى أن القائد كان تيودور أخاه .

وترامى إلى المسلمين وهم فى مَعان أن الروم قد جمعوا حشدا هائلا من الجند المدربين ، ومن أبناء القبائل العارفين بفن القتال ، ولم تعد المسألة إذن مسألة غزو بُصْرَى أو تأديب واليها أو الانتقام لقتلى ذات الطلح ، بل باتت معركة بين دولتين : أولاهما فتية شمسها تشرق ، والأخرى هرمت وآذنت شمسها بالمغيب ، ولكن لا تزال فيها بقية من قوة .

وكان لزاما على المسلمين أن يبقوا بمعان لا يتقدمون ، أو أن يرتدوا مقاتلين لو تبعهم الروم وما لهم بجوب القفار خبرة ، أو أن ينتظروا حيث هم حتى يجيئهم مدد من المدينة ، ولبث المسلمون يومين كاملين « وأمرهم شــورى بينهم » ، وكادوا ينتهون إلى البقاء حيث هم ، والكتابة لرسول الله عليه الصلاة والسلام بحقيقة الأمر والموقف ، والقوات الأمامية أدرى بحقيقة الموقف الذى يواجهها ، من القائد الذى أصدر الأمر وسير الجند و بينه و بين مسرح الحرب مئات الأميال ، ولكن إذا قدرنا هذا الأمر من الناحية الفنية خالصا للفن والعلم ، كنا نغمض أعيننا دون تقدير العامل المعنوى ، وهو روح الجرأة والتضحية التى كانت تملأ قلوب المسلمين ، وما نستطيع هذا فى هذه الدراسة لمحمد القائد على التخصيص .

وهكذا كان لهذا الروح الجرىء الأثر الأول فى أى قرار يمكن أن يصدره المؤتمرون ، وإن كان مؤرخو السيرة يجمعون على أن عبد الله بن رواحة هو الذى وقف يستحث المسلمين على السير فوافقوه ، وسار المسلمون حتى قاربوا تخوم البلقاء ، فإذا بجموع الروم فى قرية يقال لها « مشارف » ، فانحازوا هم إلى قرية « مُؤْتة » : إذ رأوها أصلح للتحصن بها ، ولكن الروم لم يمهلوهم حتى يتحصنوا بل انحدروا كالسيل ، و بدأ القتال عنيفا .

وقاتل المسلمون فى نظام ضغط الجموع بالقلب ، وجعلوا فى كل من الجنبين قوة تحول دون إحداق جيش الروم بهم ، فكان فى الميمنة قطبة بن قتادة من بنى عُذرة ، وفى الميسرة عُبادة بن مالك من الأنصار ، ولـكن هذا النوع من القتال يحسنه جند الروم أيضا .

والتحم الجمعان فى قتال قريب المدى ، لا يعنينا منه العدد الذى خسره كل فريق بقدر ما يعنينا أن قادة المسلمين الثلاثة الذين عينهم النبى بالتعاقب قد قتلوا واحـدا إثر الآخر . فأخذ راية المسلمين ثابت بن أرقم ، وقال «يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم» ، قالوا «أنت» ، قال : «ما أنا بفاعل» .

واصطلح الناس على خالد بن الوليد وهو بعد جديد على الإسلام والمسلمين .

وخالد رجل حرب بالطبيعة ، فلما ولى الأمر أعاد تنظيم قواته ، وعبأها ليقاتل مرتدا ، حتى أفلت بالمسلمين من قبضة الروم ، بعد أن أثار فى مؤخرة قواته غبارا وضجة ، فأوهم الروم أن مددا جاء إلى المسلمين ، ولهذا لم يتعقبوه ، وكان مثله فى هذا مثل الجنرال اللنبى ـ ولـكن فى وضع عكسى ـ فى مجدو سنة ١٩١٨ .

وانتهت معركة كل ما فيها قتال تصادمى ، ولم يصل أيهم إلى نتيجة حاسمة ، وهنا يجب أن نقف وقفة قصيرة ؛ فإن ابن هشام وهو من خير من أرخوا السيرة النبوية لم يذكر أسماء من استشهدوا يوم « مؤتة » إلا فى أحـد عشر سطرا ، جمعت بين الأسماء و بين البطون والقبائل ، و إذا توخيت الدقة فإن هـذه السطور ذكر فيها اسم اثنى عشر شخصا لعلهم هم الرءوس ، ولعله أيضا لم يكن هناك غيرهم ، و إذن فلا يجوز أن نقتنع بأن مائتى ألف جندى فى جيش هرقل يقاتلون ليوم كامل ، فلا يقتلون إلا اثنى عشر من المسلمين ، ولـكن الذى لاشك فيه أن التفوق العددى كان فى جانب جيش الروم ، فهل كان خالد محقا فى المداورة والانسحاب ؟ ! أم هل كان لزاما عليه أن يقاتل بالمسلمين حتى النهاية لآخر رجل ولآخر سهم ، حتى لايقابلهم أهل المدينة عند عودتهم يحثون التراب فى وجوههم على زعم أنهم فروا من القتل فى سبيل الله ؟ .

وفى رأيى أن خالدا محق ، والقائد الدرب هو الذى لا يسرف فى الدم ، ولا يضحى بجنوده إلا بثمن مضمون هو النصر ، وما كان لخالد أن يلى أمر المسلمين بين يوم وليلة ، فيخسر جمعا من خيرة رجالهم ، ما دام فى استطاعته أن يرتد فيحتفظ بهذه القوة إلى حين ، للوثوب مرة أخرى فى ظروف أصلح وأبعث على التوفيق ، وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد رد على أهل المدينة : « ليس الفرّار بل الكرّار إن شاء الله » .

ولم يكد جيش المسلمين يصل المدينة ، حتى بات على محمد أن يعمل مرة أخرى بسرعة ، ليسترد للمسلمين هيبتهم الأولى فى شمال بلاد العرب ، فبعث بعمرو بن العاص فى جمع من الرجال ، ليستنفر العرب إلى الشام ، فلما نزل بماء يقال له السلسل من أرض جُذام ، بعث للنبى يطلب منه مددا من الرجال ، فأمده بالمهاجرين الأولين ، ومنهم أبو عبيدة وعمر وأبو بكر ، واستطاع المسلمون أن يهزموا من خرج للقائهم من أهل الشام ، فكان لهذا بعض الأثر ، ولكن فى التخوم التى بين بلاد العرب والشام فقط .

— ١٤ —

فتح مكة

إذا جاز لنا أن نقول إن معركة مؤتة لم تكن نصرا لأحـــد ، وإنها كانت تجربة أولى للقتال بين المسلمين وغيرهم من الأمم ، كما كانت بدر تجربة أولى للقتال بين المسلمين وقريش ، فإن رجوع المسلمين من مؤتة إلى المدينة لا منكسرين ولا منتصرين ، كان له أثران متضادان ، فإنه وإن كان قد أثار فى القبائل العربية الضاربة على أطراف الشام إعجابا بالمسلمين ، إعجابا دعاهم إلى الدخول فى الدين بإيمان جعل أحد سادتهم فروة ابن عمرو الجذامى يُؤْثِر القتل على أن يرتد إلى المسيحية ، فقد عاون أيضا على انتشار الإسلام بين بنى سُليم وأشجع وغطفان وعبس وذبيان وفزارة ، إلا أنه مع هذا كله — وإن بسط الولاء للمسلمين من المدينة إلى أطراف الشام — كان له أثر رجعى فى مكة ، يعدل آثار أُحد ، واعتبرت قريش الأمر كأنه هزيمة للمسلمين ، وما دام هؤلاء قد أخفقوا فى مؤتة ، فَفِيمَ إذن تخشاهم قريش ؟ وإذن فلا معنى للموادعة ، ولا معنى لعهد الحديبية ، فلتكن حربا إذن .

وقد كان . . .

ونُقض صلح الحديبية لقتال حدث بين بنى بكر وخزاعة ، وخزاعة فى عهد محمد عليه الصلاة والسلام ، وبكر فى عهد قريش ، وعاونت قريش أو على الأقل بعض رجالها بنى بكر فى مفاجأة خزاعة ، وأخذ رجالها غِيلة وهم على « الوتير » ، ماء لهم على ما قال ابن هشام ، كما أمدوهم بالسلاح ، وكان الهجوم ليلا ، وقاتل القرشيون مستخفين بالظلمة ، ونقل النبأ إلى المدينة ، بل قد قيل إن رجلا من خزاعة جاء النبى وهو جالس فى المسجد ، فأنشده أرجوزة جاء فيها :

فانصر هداك الله نصرا أيِّدا   وادع عبـــاد الله يأتوا مددا

وختمها أو كاد بقوله :

هم بيتونا «بالوتير» هجـــدا وقتـــلونا ركـّعا وسجّدا

فكان لزاما على النبى أن يعمل بسرعة ، ولتكن هى الجولة الأخيرة ، وما فى هذا إلا فتح مكة ، لوضع حد نهائى لطغيان قريش ، ولإنهاء دولة الشرك وعبادة الأصنام .

ولم تغب عن قريش عاقبة ما فعل بعض شبانها وفُرسانها ، وكان لها أن تتوقع عملا مقابلا من جانب المسلمين ، فبعثت أبا سفيان ليصحح الموقف على الأقل ، وليحاول زيادة أجل صلح الحديبية إلى عشرة أعوام.

ولم يلق أبو سفيان أحدا على أهبة التحدث إليه أو الإنصات له ، ولم تفده قرابته من أحد ، ولا منزلته فى المهاجرين من قريش ، وما كان له إلا أن يعود من حيث أتى على الأقل ، وهو عالم بأن الموقف جد خطير ، وأن على قريش وقد فقدت قوة المباداة ، أن تنتظر ما يمكن أن يقوم به المسلمون .

وليس هـذا حديثا فى الدين ، بل هو حديث فى الجندية ، باعتبار أن الحرب كانت حرب عقائد وآراء ، حرب بين سلطتين معنويتين لا مادية فيهما ، فما كان الرسول يقصد الغزو أو الكسب أو فتح البلاد والأمصار ، وما ولى النبى أحدا من أهله أو أنصاره سيدا فى مكان دانَ له ، وما اعتبر شيئا للدولة وشيئا له أو للناس ، بل كان كله لله ، عن طريق المبدأ الأصلى وهو الإيمـان .

فالغرض هنا فى هذه المعركة التى اعتزمها لا زال هوَ الغرض الأول ، نشر الدين والإيمـان ، والانتهاء من عبادة الأصنام ، فهى حرب مبادئ ، على غِرار حروب الاصلاح فى أوروبا لو طهرت ممـا صحبها من بعض المفاسد والأدران ، وهى حرب أشبه بالحرب التى كانت قائمة حتى الأمس بين الديمقراطية والديكتاتورية لو انتزعت منها الناحية المـادية فى التوازن التجارى والإحداق السياسى والعسكرى ، للحد من النشاط الصناعى ، أو لتقييد الاتجار فى جانب واحد .

ولـكن هنا مشكلة .

فالمسألة ليست هى قتال قريش فى عُقْر دارها ، فإن كان هذا فليس الأمر صعبا ، فإن قوى قريش المعنوية ، قد أُضعفت وحطمت منذ يوم الحديبية ، ولانت شكيمة قريش يوم أن شهدوا المسلمين من آطام مكة ، وهم يسيرون كرجل واحد بأمر النبى ، لا يأثمون ولا يخطئون ، وقد بات الناس فى مكة ـ فيما عدا بعض الشيوخ والفُرسان ـ أقرب إلى محمد والمسلمين ، وهؤلاء لم يعد يعنيهم من الأرض أكثر من الاستقرار ، ووضع حد لهذه الخصومات التى لا تنتهى ، ولا معنى لها بعد كل هذا من اتباع العرب لنبى المسلمين ، ولكن الأمر ليس خاصا بقريش وحدها ، بل هو شامل للعرب قاطبة ، لأن الكعبة لله وليست لقريش ، ثم إن للعرب فيها أصناما كثيرة ، وفتح مكة معناه نهاية عبادة الأصنام ، وانتهاء دولة الشرك ، وإذن فلتكن الحرب لفتح مكة لا للغزو ، بل لنشر المبدأ والعقيدة ، ولو كان القصد فتح مكة لقتال قريش وحدها ، فما للعرب ولقريش ؟ ولكن لما كان الأمر وثيق الصلة بالمبدأ ، فليكن مسير محمد إذن بالعرب قاطبة ، وإذن فليتجهز المسلمون ، وليتأهب العرب ، وليسر الناس إلى حيث لا يعلمون ، أو على الأقل إلى حيث يجهلون وجهتهم إلى حين .

وهنا نلحظ مرة أخرى عامل المفاجأة ، العامل الذى استند إليه النبى ، إلى جانب عامل السرعة ، لكسب معاركه كلها .

وتجهز النبى ، وتجهز المسلمون ولا دراية لهم بالوجهة التى يقصدونها ، والنبى يقصد من هذا كله مباغتة قريش ، فيُسلِمْ أهلها دون أن تراق الدماء ، ودون أن يجد أهل مكة وسيلة للقتال ، أو عُدة يدفعون بها المسلمين عن دخول مكة ، فلما أجمع النبى على السير ، وعرفت وجهته إن لم يكن بالعلن ، فبالحدس والظن ، كتب رجل من المهاجرين كتابا إلى قريش يعلمهم بالأمر ، وبعث بالكتاب مع امرأة ، قيل إنها مولاة لبعض بنى عبد المطلب ، وجعل لها جُعلا على أن تبلغه قريشا ، فأخفت المرأة الكتاب ، وفتلت عليه قرونها ، ثم خرجت من المدينة جادة فى السير إلى مكة ، وعرف النبى بكل الأمر من وحى السماء ، وهذا حديث يجب أن نثق به عن إيمان وعقيدة .

فإن شئنا أن نتمشى مع صور الجندية قلنا : إنه كانت للنبي مخابرات فى المدينة نفسها ، وهذا تنظيم عرفته الحرب البدائية ، فما كان فى هذا ابتداع أو تجديد ، و بعث النبى بعلى ابن أبى طالب والزبير بن العوام ، فلحقا بالمرأة ، وعادا بها إلى النبى والخطاب معها .

ودعا النبى ربه ليأخذ العيون والأخبار عن قريش ، ثم أعلم الناس بوجهته ، وسار والناس معه ، حتى خرج من المدينة لعشر من شهر رمضان وهو صائم ، ولما وصل إلى مرّ الظَّهران ، على أربعة فراسخ من مكة ، كان عدد جيش المسلمين قد زاد على عشرة آلاف مقاتل ، بمن انضم إليهم من القبائل التى على الطريق .

ونلقى هنا فى حديث التاريخ قصة خروج العباس بن عبد المطلب من مكة ، تاركا أهلها يتجادلون فيما يجب عليهم أن يقوموا به ، ثم نواجه قصة لقاء العباس وأبى سفيان ابن حرب ، وما كان من إسلام أبى سفيان ، وكرم النبى عند ما قال للعباس : (من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن) . ولسنا نتحدث عن هذا من ناحية التسجيل التاريخى ، فما لنا به حاجة ، فهذا حديث قد قصه كل كتَّاب السيرة ، وإن كان اتفاقهم عليه لم يحل دون نقاشهم له ، وهل جاء بمحض الصدفة ، أو كان على أساس اتفاق سابق ؟ ولكن الذى يعنينا هنا هو الدستور الذى وضعه النبى لحرب المدن ، فى زمن لم يكن فيه قانون مسطور للحرب ، فمن دخل منزله فهو آمن ، ومن قبع فى دار العبادة فهو آمن ، فما حق القتال والقتل أو الأسر إلا على الذين يحملون سلاحهم للقتال ، ولا جريمة لمن رفع يده وكفها .

واستُبقِيَ أبو سفيان حتى يمر به جيش المسلمين فى قوته وألويته ، فلما مر تُرِك ليسرع إلى مكة ، ليمهد الطريق لدخول المسلمين ، واستند النبى فى العمل على عدم إراقة الدماء إلى شيخ شيوخ مكة ورأس سادتها ، ليضعف ما بقى فيها من قوة معنوية ، يمكن أن تثير رغبة فى القتال .

ووصل المسلمون إلى (ذى طُوَى) فلم يجدوا أحدا من قريش ، كان المسلمون قد

اجتازوا آخر خط للدفاع عن مكة ، يمكن أن تقف فيه قريش ، وبدا النصر واضحا ، ولكن مع هذا كان على النبى أن يكون حذرا .

وأذن فليدخل المسلمون مكة فى وقت واحد ، ولكن من جهاتها الأربع ، فإن كانت هناك فئة تريد القتال ، فلن تستطيع المقاومة طويلا ، لأنها ستجد نفسها بين أيد تتلقفها من كل اتجاه .

ووزع النبى قواته ، وجعل فى الجناح الأيسر الزبير بن العوام ، على أن يدخل مكة من الشمال ، وجعل خالد بن الوليد فى الجناح الأيمن ، على أن يدخل مكة من أسفلها عند اللِّيط ، وجعل سعد بن عُبادة على الأنصار ، ليدخل مكة من الغرب ، وولى على المهاجرين أبا عبيدة ابن الجراح ، وسار معهم ليدخلوا مكة من أعلاها ، فى حذاء جبل هند ، وأوصى النبى رجاله ألا يقتلوا أحدا من أهل مكة إلا إذا أكرهوا على هذا ، ومن أجل ذلك استبدل سعد ابن عُبادة بعلى بن أبى طالب ، فدخل على مكة على رأس الأنصار من أهل المدينة .

ولم يحدث قتال إلا فى مواجهة جيش خالد بن الوليد ، فقتل رجلان من المسلمين ، كانا قد شذا عن خيل خالد ، فسلكا طريقا غير طريقه ، فقتلا ، وقتل من أهل مكة اثنا عشر رجلا ، على ماجاء فى سيرة ابن هشام ، ثم هزم المشركون ، وسلمت مكة للمسلمين ، وفعل النبى فى أهل مكة ما قالوه هم ، قالوا (خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ..) فحق أن يذهبوا وهم الطُّلَقاء .

وحقت كلمة الله ، لا إله إلا هو وحده ، لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » .

وكان لزاما أن يحدث فى أعقاب الفتح شىء من الاضطراب ، فلكل من المسلمين ثأر عند قريش ، ولكن مع هذا لم يذكر كتاب السيرة ومؤرخو ذلك العصر ، إلا حوادث فردية قليلة ، ولا شك أن هذا إنما يرجع إلى قوة السيطرة المركزة فى يد القائد الأول ، وكانت مكة كما حُرِّمت يوم خلق السموات ، فهى حرام إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما ، ولا يعضِد فيها شجرا .

وانتهى المسلمون من قريش ، و إيذاء قريش ، وأصنام قريش . وكان هذا فى العام الثامن لهجرة محمد عليه الصلاة والسلام .

* * *

و يعتبر فتح مكة نهاية مرحلة الصراع السياسى العسكرى بين المسلمين وقريش ، كما أنه كان فاتحة مرحلة حاولت فيها القبائل العربية عقد محالفة حربية دقيقة ، تجمع بينها ، للدفاع عن عبادة الأصنام ضد الدين الفتى الجديد ، ولـكنها لم تنجح ، ولو كان شيء من هذا قد تم لطال أمد جهاد محمد بلا نتيجة حاسمة ، وعطل فتح مكة هذا كله ، فلم تعد للعرب من غير المسلمين قبلة يهتدون بها ، ولا كعبة يحجون إليها ، ولا مكان يتآمرون فيه ، فيمكن أن تتكون منهم عُصبة ، وكان فتح مكة أيضا قد دفع أهلها دفعا ، إلى الإيمان بأن حـديث محمد ليس بسحر ، وأنه لا يمكن إلا أن يكون من عند الله ، فكان أن بدأ الناس يدخلون فى دين الله أفرادا وجماعات ، و إذا كانت قريش قد آمنت بمحمد فأى معنى للمكابرة إذن ؟.

على أن فتح مكة كان إلى أبعد من هـذا — من الناحية الاستراتيجية — يعتبر الدعامة التى بنى عليها الفتح الإسلامي فى القرن الذى تبع وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ، ذلك لأن النبى لم يعتبر أن مكة هى الغاية والنهاية ، بل اندفع سريعا لاستكمال وحـدة بلاد العرب ، ثم وجه نظر خلفائه إلى أن فى «الشمال» - حيث وجه قواته مرة من قبل - الاتجاه الذى يجب أن يقصدوه ، وأن نشر الدين والدعوة له واجبة ، حتى لو اضطروا إلى أن يأخذوا بتلابيب الإمبراطوريتين اللتين تقيمان على أطراف بلاد العرب .

حنين والطائف

وبقى محمد عليه الصلاة والسلام فى مكة عشرين ليلة فى قول بعض الناس ، وقيل تسع عشرة فى قول ، وسبع عشرة فى قول ، ولكن الأصح على ما جاء فى البخارى خمس عشرة ليلة ؛ على أن النبى لم يكن يقصد أن يقيم طويلا . وما كان للنبى إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها ، و يترك المدينة التى انتشرت منها الدعوة الأولى ، ووثب منها الوثبة الموفقة فى بدر وغيرها . فخروج جند المسلمين ورسلهم من المدينة عامل معنوى فيه قوة عددية ، والنبى أدرى من غيره بتأثير العامل المعنوى فى القتال الذى يخوض غماره .

على أن مُقام النبى فى مكة لا يجوز أن نتركه عابرين ، دون أن نخرج منه بعظة بالغة فى الدستور الدَّولى ، فقد فتح المسلمون مكة ، وسواء أكان هذا عنوة أم صلحا ، فإن الفتح قد تم ، ومكة هى عاصمة أعدائه وحاضرتهم ، ومع هذا فإن كان الله قد أحلها لرسوله فلم يحلها لغيره . ولهذا فمن قتله المسلمون دفع النبى ديته . ثم لما أمر أن يرفع الناس أيديهم عن القتل ، قال : فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين ، إن شاءوا فدم قاتله ، و إن شاءوا فعَقْله « ديته » ، ولم يبح محمد مكة لجنده ينهبونها ، أو يغتصبون نساءها ، أو يقتلون أهلها ، على ما تفعل الجيوش المنتصرة فى الغرب المتمدين اليوم .

***

ولم يطل المقام بمحمد . كانت لا تزال أمامه جولة واحدة ليكمل وحدة بلاد العرب ؛ كانت أرض ثقيف وهوازن وهى أخصب بقاع الحجاز ، لا تزال خارجة عن سلطانه ، و إذا كان النبى يريد أن يقاتل فى خارج بلاد العرب ، فليضمن أولا مناطق الإنتاج ، ففيم إذن يترك هذه الأرض الخصبة لخصومه ؟ ولعل هؤلاء كانوا بدورهم قد فكروا فى أمر النبى

والمسلمين بعد مُؤتة ، ولعلهم كانوا يبيِّتون أمرا عندما بدأ النبى تحركه نحو مكة ، فلما رأته ثقيف وهوازن قد اتجه إلى مكة تلكئوا ، لعل قريشا تكفيهم شر القتال ، فلما استسلمت مكة ، وعظم شأن المسلمين ، كان عليهم أن يعملوا هم ، وأن يحاولوا الانتفاع من قوة المباداة ، ما دام هو لا يبادى بالعدوان ، فتهيئوا للحرب ، وحشدوا جموعهم فى حنين ، يقودهم مالك ابن عوف النَّصْرِىّ ، بعد أن نفضوا أيديهم من زعامة دريد بن الصِّمة الجشمى .

كانت قد اجتمعت ثقيف وهوازن كلها ، وحشدت نصر وجُشَم رجالها ، وجاء سعد ابن بكر وناس من بنى هلال ، ولم تحدثنا كتب السيرة بتعداد هذا الجمع ، ولكن لاريب أنه كان كبيرا ، ثم إنه لا شك كان يجمع أقوى من بقى فى بلاد العرب على الشرك ، وآخر مجموعة يمكن أن تقف فى وجه المسلمين .

وخرج هؤلاء بمالهم وأولادهم ، حتى يقول ابن هشام فى سيرته : إنهم جاءوا معهم بكل ما يملكون ، ولو كانت الأرض يمكن أن تحمل لحملوها معهم . كل هذا لأن مالك بن عوف شاء أن يجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ، ليقاتل عنهم ، ولكن الواقع أن هذا ما كان ليغنى عنهم شيئا ، وهى إن كانت لهم ، لم ينفعهم إلا رجل بسيفه ورمحه ، فإن كانت عليهم ، فكأنهم فضحوا فى أهلهم ومالهم .

وانتهى أمر المشركين بعد دُريد بن الصمة إلى مالك بن عوف ، فلم يهاجم المسلمين ، فما كان فى استطاعته أن يهاجم مكة ، ولا أن يتقدم إلى المدينة ، بل أجمع على أن يقف بجمعه بين بين ، فإن هذا الحشد الهائل كاف لأن يحتفظ بقوة المباداة إلى حين ، وليترك البقية للخداع والمفاجأة والسرعة ، ولقد يكون لزاما علينا أن نعرف أن مالك بن عوف وإن كان إذ ذاك فى الثلاثين من عمره ، كان من فتيان الصراع والحرب ، وكان معه كذلك فى الجمع الذى يسير وراءه دريد بن الصمة ، وهو شيخ أفنى عمره فى القتال ، ولهذا كان لزاما أن يسير المشركون إلى حيث يمكن أن تصلح المكيدة والخداع ، فانصرف بجموعه إلى أرض تهامة الجبلية ، والمسلمون لا يحسنون هذا النوع من القتال ، وليست لهم سابقة خبرة به ، وقدر مالك أنه وهو فى مكانه من شعاب الجبل ، يستطيع أن يرقب تقدم

المسلمين ، ويستطيع أن يخفى أوضاع جنوده ، ويستطيع أن يتحكم فى الممارّ الضيقة ، ثم يحط على المسلمين من عَلُ فى اندفاع السيل الجارى ، فيقوض أركانهم ، ويهز جموعهم ، وهم فى غمرة هذا الاضطراب سيقتل بعضهم بعضا ، ويكفونه مشقة الإجهاز عليهم ، فإذا ربح الجولة الأولى ، سهل عليه أن يدرك غرضه ، وأن يصل إلى ما لم تستطعه قريش والأحزاب من قبل .

وترامى إلى النبى اجتماع ثقيف وهوازن ونصر وجشَم ، ومرة أخرى نرى النبى تواقا إلى معرفة خبيئة القوم ، فيبعث بمن يتحسس له الأنباء ، فلما جاء النبأ الصحيح ، وبدت له حقيقة القوة التى تواجهه ، خرج بجيشه الذى جاء به ، وخرج معه ألفان من قريش ، من الجديدين على الإسلام .

ولسنا هنا فى مقام تعقُّب ما حدث فى المعركة إلا من ناحية التسجيل العسكرى ، ولا يعنينا شىء غير هذا ، ولكن قد نجد فى تعقبنا لمطولات كتب السيرة ، أن بعض رجال قريش قد خرجوا مع النبى عليه الصلاة والسلام وهم حرب عليه ، وأكثر رغبة فى هزيمته ، ولسنا نزعم أن هذا قد غاب عن النبى الكريم ، ولكن هكذا قدر الله ليصل المسلمون إلى عظات لهم ، مما يحدث فى تاريخ نبيهم .

والأمر الذى نلاحظه فى سير الاقتراب من ناحية المسلمين : أنهم كانوا يتقدمون هذه المرة فى قول طريق ضيق المواجهة ، بحكم الأرض الجبلية التى يقطعونها ، وقوتهم كلها متماسكة منضمة ، وكان لزاما أن يتقدم المسلمون بوثبات خلف مقدمة تكشف لهم الطريق ، ولاسيما مداخل الوديان الضيقة ، فإذا تيقنت من عدم وجود العدو ، جاز لجموع الجيش أن يتقدم إلى الوثبة التالية ، وهكذا .

ولكن المسلمين تقدموا فى قول واحد ، فلما توسطوا أحد وديان تهامة الوعرة ، اندفع المشركون كرجل واحد من كل اتجاه ، وأخذوا المسلمين مفاجأة ، فحدث ذعر ، واختلت الصفوف ، ولم يدر الناس من أين يجيئهم الموت ، وفى طول تعقبنا لدراسة التاريخ الحربى ، يمكن أن نجد عشرات الأمثلة لهذا العامل الهدام ، ألا وهو الذعر . « لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ

فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ » (التوبة ٢٥) ، وفى هذه المرة أيضا كاد يتم ماقصده مالك بن عوف ، ولولا أن ثبت النبى مكانه ، وثبت معه نفر من أهله وفيهم عمه العباس ، لكان الإخفاق حاسما ، وأمعن المسلمون فى التقهقر يطلبون النجاة من الأرض الضيقة الوعرة ، ونادى العباس بأمر النبى — الأنصار ليثبتوا ، فتثبتوا ، أليسوا هم أول من نصر النبى و بايعوه لقتال الناس على اختلاف ألوانهم ، ووعدوه أن يمنعوه بأنفسهم وأولادهم ، ففيم إذن يفرون من الموت فى دفاعهم عن محمد ؟ وتجمع الأنصار حول النبى ، وصمدوا للقتال « ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ » (التوبة ٢٦ مدنية) .

ولم يستطع ابن هشام برغم إفاضته فى الحديث ، كما لم يستطع غيره من مؤرخى السيرة ، أن يحدثنا عن هذا القتال الذى حدث ، والعلة فى هـذا أنه كان نوعا من قتال الاقتحام وفى غمرة هـذا القتال ، لايمكن إطلاقا أن تكون هناك توزيعات للمهاجم ، ولا أوضاع للمدافع ، بل الذى حدث قتال فردى ، رجل لرجل ، وكلما انتهى أحدهم من خصمه عاون آخر ، أو تلقى خصما جديدا .

وفى هذا النوع من القتال لا أهمية للعدد ، ولا قيمة للجموع ، بل العامل الحاسم هو الروح المعنوى ، وكان ثبات النبى هو سبب التعاون التكافؤى لمرحلة الاصطدام الأول بين الجانبين المتقاتلين ، فلما تجمع الأنصار وعاد الناس فرادى على أعقابهم ، شد المسلمون بعضهم أزر بعض ، ثم شدوا على المشركين ، فأزاحوهم من طريقهم ، وانقلب القتال إلى ضغط الجموع ، فتراجعت ثقيف وهوازن فى غير تماسك ، وكانت الهزيمة للمشركين .

ولعل دُريد بن الصمة كان يتوقع هـذا ، فلما حلت الهزيمة بهوازن كانت نساؤها وأطفالها وأموالها غنيمة للمسلمين ، وكانت الغنيمة كبيرة ، حتى قيل إن عدد الإبل كان اثنين وعشرين ألفا ، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية ، هذا عدا أربعين ألف شاة .

واستطاع مالك بن عوف بعـد مدى غير قصير ، أن يلم شعث جيشه المُفَكَّكِ ، وأن ينسحب به إلى الطائف ؛ فتحصن بها .

وجد المسلمون فى السير فى عملية مطاردة لاهوادة فيها ، حتى أشرفوا على الطائف ، ومن هنا كان السبب الذى دعانا إلى أن نتحدث عن المعركتين معا ، لأن كلا منهما تكمل الأخرى .

ولعل بعض الناس كانوا يرون الاكتفاء بما حدث فى حنين والعودة إلى مكة أو المدينة لاقتسام الفىء ، ولـكن محمدا لم يخرج للمال ، وما قصد أصلا الحصول على غنائم ، فما كان له إذن أن يقنع بانتصار مبدئى ، وأن يتقبل هذه الألوف من الجمال والوَرِق ، فالنصر يجب أن يكون حاسما ، ويجب أن ينتهى الأمر إلى قرار واضح فى شأن مالك بن عوف وأنصاره ، فإذا كان هؤلاء قد تحصنوا بالطائف ، فليحاصر المسلمون الطائف ، ما عليهم فى هـذا من حرج ، وللمسلمين خبرة بشئون الحصار وصبر عليه ، ألم يحاصروا آطام بنى قريظة ؟ ! . ألم يقتحموا حصون خيبر ؟ ! ، ومهما كانت حصون الطائف قوية ، وهى قوية حقا بأبوابها التى تغلق عليها فتجعلها كتلة قوية صعبة القضم ، فإن طول الحصار سيجهد أهلها ، وما بقى بعد هذا من مقاومة ، فإن الروح القوى الذى لدى المسلمين موفور مَصُون يـكفى للانتهاء منه .

وأمل المسلمون خيرا فى الحصار ، بل يقص علينا ابن هشام فى سيرته أن بعض الناس راحوا يسألون النبى أشياء خاصة من الطائف ، تعطى لهم بعد فتحها ، ولـكن أهل الطائف كانوا شيئا آخر غير يهود خيبر و بنى قريظة ، كانت لهم خبرة بفنون القتال الدفاعى ، وهم أصحاب ثروة وعُدة ، ولهم فى الحروب تاريخ قديم ، فلم يكد المسلمون يشرفون على جدران الحصون فى مرمى النبال ، حتى أمطرهم أهل الطائف وابلا منها ، والمطر أوله رذاذ ثم ينهمر ، وتساقطت النبال وسط القوات الزاحفة لتسلق الجدران ، واقتحام الأبواب ، فقتلت من قتلت ، وجرحت من لم تقتل ، ولم يجد النبى بدًّا من أن يعود بجنده إلى خارج مرمى النبال ، والتراشق بالمدفعية الخفيفة لا يصل إلى شىء حاسم مهما

طال أمد استخدامه ، و إذن فليحاصر المسلمون الطائف بالأسلوب الذى جربوه من قبل ، وليجوعوا أهل الطائف ، ولـكن كم يطول هذا ، لاسيما إذا قدرنا ثراء الأهلين وما يمكن أن يكون فى حصونهم من غذاء وعتاد .

وهنا بدأ مؤتمر التخطيط للمعركة ، واستعرض النبى الموقف، ومرة أخرى بدت ضرورة استخدام أسلحة جديدة من أسلحة الحرب ، و إذا كان النبى قد قبل رأى سلمان الفارسى ، فحفر الخندق حول المدينة بين الحَرتين يوم الأحزاب ، فلم لا يقبل مشورة الطُّفَيل من بنى دَوس ، فيقذف جدران الحصون بمدفعية الحصار الضخمة فى صورة المِنجنيق ، الذى اشتهر بنو دَوس بفنونه و باستخدامه التـكتيكى ، وذهب الطفيل إلى قومه فاستنصرهم ، وجاء بنفر منهم وقد احتملوا معهم آلاتهم .

وقُذف الطائف بالمنجنيق مثنى وثلاث ورباع ،ودكت الأرض ، واندفع نفر من المسلمين تحت دبابة ! ــ على ما يقول ابن هشام ــ زاحفين بها إلى جدار الطائف ليخترقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سِكَكَ الحديد محماة بالنار ، فخرج المسلمون من تحت الدبابة، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتل منهم كثيرون .

وكان معنى هذا أن الجولة الهجومية الأولى لم تنجح ، و إذا كانت مرحلة الاختراق لم تنجح ، فإن التسرب للاقتحام لن يتم ، و إذن فعودة إلى العامل الأصلى ، وهو الحصار الصامت ، الذى يستند إلى هجوم معنوى بالدعاية .

على أن الدبابة التى استخدمها المسلمون الأولون عند الطائف ، لا تزيد على آلات تقويض الجدران ، التى عرفها أهل القرون الأولى لميلاد عيسى عليه السلام ، والتى كانت تستند إلى قضبان قوية من الأخشاب لهـا أطراف من الحديد المشحوذ ، وهذه القضبان تسير على عجل مدفوعة بأيدى الرجال المفتولى السواعد، على أن تغطيهم مادة واقية ، يمكن أن تحميهم من نبال المدافعين .

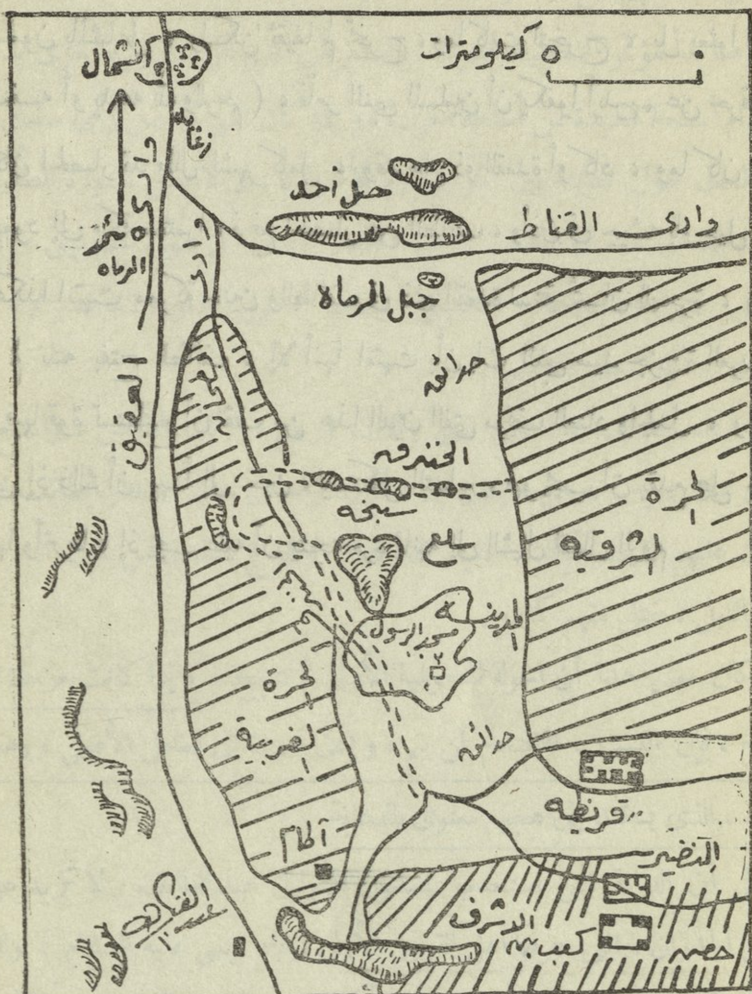
وطال الحصار لشهر كامل ، وانتقل بعض الناس من معسكر ثقيف إلى معسكر المسلمين ، وعرف النبى منهم وفرة ما فى الحصون من مئونة وذخائر ، و إذن فلن يؤثر هذا

الحصار إلا إذا طال أمده ، وقد بدأ المسلمون أنفسهم يضيقون به ، وإذن فلا بد من استخدام وسيلة أخرى غير مباشرة ، وكما استخدم النبى مع بنى النضير سلاح حرق النخيل ، فلماذا لا يحاول تجربة حرق كروم الطائف ؟ أمر النبى بحرق الكروم ، فتسارع إليها المسلمون بالمشاعل ، ولكن ثقيفا لم تخرج ، وما كانت لتخرج ، بل بعثوا للنبى (أن يأخذه لنفسه أو يدعه لله وللرحم) ، فأمر النبى المسلمين أن يكفوا أيديهم عن حرقه .

وكان الحصار قد طال لشهر كامل ، وقد هل ذو القعدة أو كاد ، وما كان على النبى إلا أن يعود إلى مكة معتمرا ، فرفع الحصار عن الطائف ، وأذن فى جيشه بالرحيل .

وهكذا انتهت معركة حنين والطائف فى ذى القعدة لسنة ثمان للهجرة ، وهى وإن كانت لم تنته بفتح الطائف ، إلا أنها انتهت بأن بات النبى سيد جزيرة العرب كلها ، وليست فيها قوة تستطيع أن تقف من هذا الدين الفتى موقف العناد والجدل ، وبات لزاما على النبى إذ ذاك أن يهدأ إلى حين ، ليستكمل التدابير ، فهو يجب أن يقدم على مرحلة لها خطورتها وأثرها ، إذ يجب عليه أن يتجه مرة ثانية إلى الشمال لقتال الروم .





الأحزاب والخندق

تبوك

مرت شهور العام التاسع للهجرة يجر بعضها بأذيال بعض ، والنبى فى المدينة يجمع أمره ، و يعد عدته للسير نحو الشمال ، فلقد ترامى إليه أن الروم يهيئون جيشا لغزو بلاد العرب ، ليحصلوا على ما فاتهم يوم مؤتة ، وليخففوا من وقع نجاح خالد فى الانسحاب بالمسلمين ، وهم حَفنة من الرجال ، من قبضة جيش عرمرم ، قيل إن « هرقل » نفسه كان يقوده .

فلما جاء رجب أمر النبى الناس بالتهيؤ لغزو الروم (فى زمن من عُسرة الناس ، وشدة من الحر ، وجدب من البلاد) ، وعلى خلاف ما اعتاده المسلمون من أن يبدءوا السير وهم يجهلون حقيقة محجهم ومقصدهم ، أعلن النبى منذ البداية أنه يقصد الشام ، بل و بعث النبى إلى عامة المسلمين فى مختلف نواحى بلاد العرب، أن يتهيأوا للخروج معه، كما بعث إلى أغنيائهم للمعاونة فى تجهيز الجند وحضهم على النفقة والُحمْلان فى سبيل الله ، وعلة هذا أن النبى أراد لبعد الشقة وشدة الزمان و كثرة العدو ، أن يخبر الناس بجلية الأمر ، ليتأهبوا لجهازهم ، ولـكن لعل الناس كانوا قد قنعوا بمـا أدركوا ، فقال بعضهم لبعض (لا تنفروا فى الحر) ، فقال الله تعالى : «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ » (التوبة ـ ٨١) .

فلمـا ترامى إليه أن نفرا من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى عند جاسوم ، يثبطون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث إليهم طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، فحرقه وهم فيه .

***

وجدّ المسلمون فى السير فى جمع كبير ، قيل إنه تقدمه عشرة آلاف فارس ، يكشفون الطريق ، ويحمون قوته الأمامية من راكبى الإبل والرَّجالة ، ونزل المسلمون الِحجر حيث

كانت أطلال منازل ثمود منقورة فى الصخر ، فلما ارتوى الناس من سحابة أمطرتهم ، عادوا فتابعوا السير إلى تبوك .

وحط المسلمون رحالهم عندها ، ولكنهم لم يجدوا جيش الروم الذى خرجوا للقائه ، وعرف محمد صلى الله عليه وسلم أن قائد الروم قد سمع بأمر جيش المسلمين وقوته ، فآثر أن ينسحب إلى داخل بلاد الشام ، ليتحصن بحصونها .

وبدا أن محمدا عليه الصلاة والسلام لم يصل إلى غرضه ، فهو لم يلق جيش الروم ، ولم يقاتل أحدا ، وما فى الأرض كسب ولا غنائم ، يمكن أن تعوض على الجند ما أنفقوا فى جهازهم وفى سفرهم .

فهل يعود محمد ثانية بالمسلمين إلى المدينة ، على أن يعتبر وصوله إلى تبوك وانسحاب الروم كافيا لتأمين حدود بلاد العرب الشمالية ، وإن لم يكن هذا هو الغرض الأساسى من خروجه .

أم هل يتقدم محمد إلى داخل بلاد الشام ليقاتل الروم فى عقر دارهم ، وعند جدران حصونهم المنيعة ، التى هى ولا شك أقوى من حصون الطائف ، ولا عدة له للحصار ، ولا سبيل إلى البقاء الطويل ؟

والله إنه لن يفعل الأمر الثانى ، وما كان له أن يفعله ، فما كان له أن يزيد فى خطوط مواصلاته ، وفى بعده عن قاعدة تموينه المدينة . وهو بعد هذا لا يدرى شيئا عن طبيعة الأرض ، ولا من يمكن أن يقاتله من جند ، ولا يعرف من أين يجىء لجنده بحاجتهم من الطعام . وما أظن أن النبى الذى ما كان يأخذ شيئا إلا كسبا أو صلحا ، يمكن أن يمون جنده ، عن طريق القَسْر والاغتصاب من الأهالين فى أرض العدو ، على ما يقول سادة الاستراتيجية فى القرون التى سبقت النبى أو صحبت عصره ، ثم إن المسلمين كانت قد صارت لهم بالقتال فى الأرض المكشوفة خبرة ، لأنهم يقاتلون بضغط الجموع ، وهذه تكتيكات لا تصلح للمعركة الهجومية فى الأراضى الجبلية الوعرة ، أو مناطق المبانى والمزروعات والأنهار ؛ ثم إنه ليس فى قوة تكفى لخوض غمار معركة من أجل الشام ، فلتكفه إذن هذه النهاية الاستراتيجية التى حصل عليها ، وليترك أمر الروم إلى فرصة قادمة ، يعلم الله وحده متى تجىء ؟

ولكن ما دام المسلمون قد وصلوا إلى الحدود الشمالية لبلاد العرب ، فليعمل محمد شيئا يكون له أثره فى تأمين هذه الحدود من ناحية مباشرة ، فبعث إلى يوحنا بن رؤبة ، صاحب أيلة ، يدعوه إلى الصلح والجزية أو يغزوه ، فصالحه ابن رؤبة ، كما صالحه أهل الجرباء من أعمال عَمَّان ، وأهل أذرُح من نواحى البلقاء ، ودفعوا الجزية التى فرضها عليهم النبى ، ثم بعث بخالد بن الوليد ، فى خمسمائة من فرسانه ، إلى أُكيدر بن عبد الملك ، سيد كندة ، فى دُومة الجندل ، فأسروا أكيدر ، وقتلوا أخاه ، وفتحت المدينة أبوابها فداء لأميرها .

ولست بمتعقب هنا ما كان من أمر المنافقين ، ومن انضموا لهم فى السؤال عن سبب مسيرهم فى الصحراء هذه الشقة البعيدة ، و بقائهم فى تبوك عشرين يوما بلياليها ، ثم عودتهم ثانية ، بلا كسب ولا غنيمة ، ثم ما كان من أمرهم ، عند ما جاء خالد بن الوليد بأكيدر أسيرا ، وما ساقه من غنيمة من دومة الجندل ؛ فلست هنا فى مقام التسجيل للحوادث . ولكن الذى يعنينا حقا ، هو أن غزوة تبوك ، كانت معركة ذات غرض استراتيجى ، وقد وصل النبى إليه دون قتال . فقد أمنت للمسلمين حدودهم الشمالية ، وجعلت أمراء أطراف بلاد الشام حلفاء لهم ، وأوضحت للقبائل العربية التى لا تزال على الشرك ، أن دولة الروم قد خافت قوة المسلمين ، فبدءوا يفدون إلى المدينة ، يدخلون فى دين الله أفواجا .

وعلى هذا القياس الاستراتيجى وحده ، يجب أن تقدر تبوك ، ويجب أن تقدر على قياس نتائجها ، لا على قياس ما جرى فيها ، وما مرت به أدوارها .

على أنه لا يجوز أن نترك تبوك ، دون أن نعقب على ناحية فيها ، هى سير الاقتراب ، فقد كان المسلمون يسيرون فى قولين متعاقبين ، فى أولهما الفرسان ، وفى ثانيهما راكبو الجمال والرَّجالة — ولم تكن وراءهم قوة أخرى ترد المتخلفين — مع أن كل سادة الاستراتيجية الذين سبقوا النبى كانوا يتحدثون بأهمية رد المتخلفين ، الذين يتقاعسون عن الجيش ، بعد أن عرفوا وجهته . ولم يغب هذا عن النبى ، ولكنه كان يقول كلما تخلف فرد : « لو كان فيه خير رده الله إليكم ، ولو كان شر فقد كفاكموه الله » . قال هذا حتى عن أبى ذر .

الغِفارى ، فلما أقبل وحده يحتمل جهازه على كتفه ، قال عليه الصلاة والسلام : « يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » . وفكرة الرسول الأمين فى هذا ألا يساق للقتال فرد كاره له ، فإنه يكون شرا على إخوانه .

وكانت تبوك آخر مرحلة كبيرة فى فجر الجهاد الإسلامى ، وإن كانت من ناحية أخرى فجر الفتح الإسلامى بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام . بل إنها كانت العامل الأساسى لإعداد جيش تحت إمرة أسامة بن زيد لغزو الروم ، ولكن وفاته عليه الصلاة والسلام حالت دون مسير هذا الجيش ، بعد أن تأهب للغزو .

الجندية فى فجر الاسلام

تكوين الجند الاسلامى الأول

تكوين الجند : نوع من التعبئة للقوات المتقاتلة فى عرف الدولة الحديثة ، وهذا التكوين كان يجىء منذ أقدم العصور فى صورة « الإرغام » ، فتفرض الدولة على أبنائها أن يساهموا فى أداء ضريبة الدم ، لفترات تطول أو تقصر تبعا لقيام الحرب بينها و بين جيرانها . وأول ما نجد من حديث مسطور عن جيش قائم عامل تعده الدولة دائمـا للقتال ، كان فى عهد دولة حمور ابى البابلية ، ثم فى تاريخ مقارب أيام الدولة المصرية القديمة ؛ فلما انتقلت مدنيات مصر وفارس والإغريق إلى أوربا المسيحية ، انتقل معها نظام إعداد الجيوش ، ولـكن كان أول ما عرفته أوربا المسيحيـــة ، هو آخر ما انتهت إليه الإمبراطوريات القديمة عند ما أشرفت شموسها على المغيب ، ذلك لأننا نلقى فيها صورة جديدة ، هى صورة الجيوش الأجيرة ، التى تخدم من يدفع أكثر من غيره .

وكان وجود الجيش فى العرف الدولى ، مَثَلُه مثل قيام الحكومة ، أووجود سلطة تشريعية ، فى أنه أحدى الدعائم التى يجب أن تتوافر فى الدولة ، ليكون لها كيان سياسى .

ولـكن القرون فى مسيرها ، كانت توجد صورا جديدة كثيرة لعلاقة الفرد بالجماعة ، ثم علاقة هذه الجماعة بالمجموعة الـكبرى ، أى الدولة ، وتطورت حقوق الفرد وحرياته ، وكان أحدث ما وصل إليه الأفراد من حقوق ، هو أن المبادئ الديمقراطية تجعل الفرد طليقا حر الرأى ، بالنسبة للحرب التى تعلنها الدولة من جانبها على دولة أخرى ، ولهذا لم يكن فى استطاعة الدولة أن ترغم أبناءها على الاشتراك فى حرب لا يرتضونها ، فكان الأفراد أحرارا ، لهم أن يتطوعوا للعمل فى القوات المتقاتلة إن أرادوا ، ولـكن هذا التطوع

كان فيه نوع من الإرغام غير المباشر ، ذلك لأن الحكومات تملك أن لا تدفع للمتعطلين من أبنائها ، الذين لا تحتاج إليهم صناعاتها ووظائفها ، مايقوم بأودهم ، وهى إذ ذاك تضطرهم اضطرارا إلى أن يجعلوا من القتال حرفة لهم وصناعة . وقد كان الإنجليز قبيل الحرب العالمية الثانية ، يضعون فى جوار الأبنية العامة ، حيث توزع إعانة البطالة على العمال المتعطلين عن العمل ، الواحا قد خط عليها بعض سطور ، تذكر العامل بأنه متعطل عن العمل ، و بأن من واجبه أن يعمل من أجل هذا الوطن ، فإن لم يجد عملا له ، فلم لا يتطوع للجيش؟ وهذا النوع من الحث على التطوع للجيش بمختلف أسلحته ، فى البر والبحر والجو ، على ما يجىء فى هذه الألواح الملونة ، هو نوع من الإرغام القومى .

ولكننا لن نجد التجنيد الإجبارى ، ولا الإرغام القومى ، فى قصة تكوين الجند الإسلامى الأول ، و إن كان من الممكن أن نجد شيئا من هذا فى عصر متأخر من التاريخ الإسلامى ، ذلك لأن مبدأ القتال جاء إلى الإسلام أصلا لرد الاعتداء ، فقد كان هذا الدين الفتى ، منذ بداية الدعوة له حتى هجرة محمد عليه الصلاة و السلام إلى المدينة ، هو (المُعْتَدَى) عليه ، ثم لما هاجر النبى وأصحابه إلى المدينة ، لحقهم من أذى قريش الكثير ، فكان لزاما أن يرد هذا الاعتداء ، مادامت صدور المسلمين قد ضاقت عن احتمال الصبر على المكاره ، وما دام هذا الصبر أو التسامح قد ظن أنه ضعف من المسلمين ، ولكن الإسلام لم يفرض القتال على أناس دون غيرهم ، ولم يوح إلى النبى أن يعد قوة تدفع عن بقية المسلمين اعتداء قريش والمشركين ، قوة خاصة أشبه بالجيوش الحديثة ، فقد جاء الأمر بالقتال تكليفا للمسلمين عامة « كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ ـ الآية » البقرة ٢١٦ .

ومع أن القتال كان تكليفا واجب الأداء على كل مسلم يود أن يقرض الله قرضا حسنا ، فإنا نجد صورة من أروع صور التسامح الطليق ، فإن كل فرد يملك ألاّ يخرج للقتال ، وأن يقعد مع القاعدين ، أو أن يخرج ثم يعود مرتدا غير راغب فيه ، كما حدث من عبد الله بن أبىّ ابن سلول ، ومن تبعه من الأنصار ، يوم غزوة أحد ، بل ولم يفرض القرآن أى حَدّ دنيوى على من يتخلف عن القتال ، كما رسم الحدود لغير

هذا من الفروض التى جاء بها الدين . على أن القرآن الكريم قد تحدث عن هذا كله فى صورة مليئة بالرحمة والحلم من الله ، فقد غفر الله لمن تولوا عن القتال يوم أحد ، والمسلمون بحكم أنهم قلة فى العدد أحوج ما يكونون إلى سيف وساعد « إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ - آل عمران ١٥٥ » .

ولكن ماذا يفعل محمد عليه الصلاة والسلام ، إذا قعد الناس عن القتال ، يقول سبحانه وتعالى : « فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ - النساء ٨٣ » . وتكليف الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم بالقتال ، غير مكلف إلا نفسه ، وغير آبه بتخلف أحد عنه ، معناه أن يقاتل ولو وحده ، لأنه موعود بالنصر ، لكن يجب أن يحث المسلمين على القتال ، ويرغبهم فيه ، وقد جاء هذا التكليف فى عصر متأخر ، بعد أن كتب القتال على المسلمين عامة على التحقيق ، لأن هذا جاء فى سورة النساء ، وقد نزلت النساء بعد الممتحنة ، وهذه بعد الأحزاب ، والأحزاب بعد آل عمران ، وآل عمران بعد الأنفال ، والأنفال بعد البقرة ، أول سورة نزلت بالمدينة . وقد كان من آثار هذا التكليف للنبى الكريم بالقتال ، حتى ولو كان وحده ، أن قال : (والذى نفسى بيده لأخرجن ولو وحدى) ، فخرج إلى بدر الصغرى بسبعين راكبا ، فكف الله بأس الكفار ، بإلقاء الرعب فى قلوبهم ، ومنع أبا سفيان عن الخروج [١] .

على أن الذى نستطيع أن نجزم به ، هو أنه لم يكن فى فجر الإسلام جيش قائم ، بل كان الجيش مجموع المسلمين من المهاجرين ، ثم من المهاجرين والأنصار . ففى السرايا الأولى لكشف الطريق بين مكة والمدينة ، واستقصاء أخبار قريش ، ثم أنباء تجارتها مع الشام ، كان النبى يتخير الناس لهذه البعوث ، وكان يتخيرهم من المهاجرين وحدهم ، وكان النبى هو الذى يوجه البعوث ، ويرسم لها خططها ، ثم يتكتم هذه الخطط والرسوم ، فقد رأيناه يوم أن بعث عبد الله بن جحش ، لكشف الطريق إلى مكة ، يأمره بألا يفتح

---

(١) راجع تفسير الجلالين صفحة ٦٩ ، وسورة آل عمران ، الجزء الثالث من القرآن .

كتابه الذى وجهه به ، إلا بعد مسيرة يومين من المدينة ، ذلك لأنه كان يبعث به إلى مرمى سهم من مكة ، فى قوة صغيرة ، لا تصلح للقتال ، ولا تقوى على الصدام ، وكان يخشى أن تكون لقريش ، بين مشركى المدينة ويهودها ، عيون على المسلمين .

فلما كانت بدر كون الجند الإسلامى الأول ، وكان تكوينه فى صورة فذة ، فقد جاء الناس إلى المسجد للصلاة ، فلما انتهوا منها ، قال النبى : « هذه عير قريش ، فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها ، لعل الله يُنفَلِّكموها » . فخف بعض الناس ، وثقل البعض ، وكانت عدة من خرجوا ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلا من المهاجرين والأنصار ، وكان هذا هو أول خروج للأنصار .

فإذا كنا فى « أحد » وجدنا النبى عندما بلغه خروج قريش تقصد المدينة ، يجمع أهل الرأى من المسلمين ومن المنافقين — على ما نعتوا فى القرآن الكريم — وجعل يشاورهم فى كيفية لقاء عدوهم ، فلما تغلب القائلون بالخروج من المدينة للقاء قريش ، أذن النبى فى الناس بالخروج ، ثم دخل بيته بعد صلاة العصر ، فتعمم ولبس درعه ، وتقلد سيفه ، وما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها ، حتى يحكم الله بينه و بين أعدائه ، فقد خرج فى تسعمائة مسلم ، ليقاتلوا ثلاثة آلاف قرشى ، كلهم موتور من يوم بدر .

وفى صبيحة الغد من يوم أُحد أذَّن مؤذن النبى فى المسلمين بطلب العدو ، واستنفرهم لمطاردته ، على ألا يخرج لهذا القتال إلا من حضر «أحدا» بالأمس ، فخرج الناس حتى أتوا حمراء الأسد ، على مسيرة ثمانية أميال من المدينة ، ولكن قريشا كانوا قد أمعنوا فى السير ، فلم يعودوا للقاء المسلمين ، ولم يتوقفوا لقتالهم .

وقد استمرت هذه الحال فى بقية غزوات النبى : يجتمع القوم فى مسجد الرسول بالمدينة ، فيأمر النبى بالخروج ، فمن خرج وعاد فقد ظفر ، و إلا كانت الأخرى وهى الشهادة .

ولم يكن القعود عن القتال — فيما عدا حادث نكوص عبد الله بن أُبَىّ يوم أُحد — إلا كحادث عرضى ، حتى كانت بدر الأخرى بعد أن استدار العام من « أُحد » ، فذكر النبى الموعد الذى ضرب به أبوسفيان غداة أحد ، ولكن بدا لبعض المسلمين أن يتجنبوا

الخطر ، وأظهر الكثيرون منهم الرغبة عن النهوض والسير لبدر ، فخرج النبى فى سبعين رجلا لم يعرف أحدهم الخوف ، بل إنهم كانوا يأملون الشهادة « ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » (آل عمران ١٦٨ و ١٦٩) .

ولم يخرج المسلمون للقتال قبل أن يجتمعوا فى المسجد إلا مرة واحدة فى غزوة ذى قَرَد

القيادة وحمل لواء المسلمين

وفيما عدا ما حدث فى السرايا الأولى لم ينَصِب النبى قائدا للجيش ، حتى كان الجيش الذى أرسله لقتال الروم ، ولعل القيادة كانت رمزية فى الرسول نفسه ، ولكنه لم ينصب نفسه ولا غيره لها ، إلا عند ما كان يبعث البعوث ، أو يرسل الجيوش ، كما حدث فى قتال الروم ، وهذا على قياس أن محمدا عليه الصلاة والسلام لم يكن حاكما ولا ملكا ، و إن كان قد وضع أسس الحكومة العربية ، وشيد الدعائم القوية للإمبراطورية الإسلامية التى جاءت بعده ، وقد كان هو الرأس المفكر واللسان الناطق ، ولكنه لم يستأثر بالقيادة ووضع الخطط وتدبير أمر القتال إلا فى بعض المواقف ، عندما كانت تتحرج الأمور .

وقد قاتل النبى بنفسه فى بعض الغزوات ، و إن كان ابن تيمية ينكر أنه عليه الصلاة والسلام قاتل فى غير غزوة أُحد ، ولكنه على التحقيق لم يقتل أحدا بيده إلا فى « أُحد » عندما رمى أُبىّ بن خلف بحربة أصابت عنقه ، وجعلته ينقلب على فرسه ، ولم يكن الجرح مميتا ، ولكنه تسمم فى الطريق ، فمات قبل أن يصل إلى مكة .

على أن النبى كان يقسم جيشه إلى ألوية ، ويعطى لواء كل قسم لرجل يتخيره ، ومسألة مسيرة الجيش خلف لواء يحمله رجل ، عادة وصلت إلى العرب منذ أبعد العصور ، وكانوا يعرفونها منذ عصور الجاهلية الأولى ، حتى فى الصراع بين القبائل .

ولم يجد النبي أية غضاضة فى أن يتبع سنة السلف ، فيكون مع كل قسم من جيشه لواء يحمله رجل . ففى بدر كان لواء المهاجرين بيد على بن أبى طالب وهو ابن العشرين ، وكان لواء الأنصار مع سعد بن معاذ ، فلما تولى سعد حراسة العريش الذى بنى للنبى ، دفع اللواء لغيره من الأنصار .

وفى أحد عقد النبى ثلاثة ألوية : لواء المهاجرين لعلى بن أبى طالب ، ولواء الأوس (من الأنصار) لأسد بن الحضير ، ولواء الخزرج (من الأنصار) للحُباب بن المنذر ، وقيل لسعد بن عبادة . ولما سأل النبى عمن يحمل لواء قريش فقيل له إنه طلحة بن أبى طلحة ، أخذ لواء المهاجرين من على بن أبى طالب ، وأسلمه لمصعب بن عمير ، قائلا « نحن أحق بالوفاء منهم » وذلك لأن مصعبا من بنى عبد الدار بن قصى ، وكان لهم فى الجاهلية اللواء والحجابة والسقاية والرفادة .

وفى غزوة بنى قريظة وفى خيبر كان لواء المسلمين كلهم بيد على بن أبى طالب ، وفى غزوة بنى المصطلق جعل لواء المهاجرين لأبى بكر ، ولواء الأنصار لسعد بن عُبادة .

ثم استمر علىّ يحمل لواء المسلمين وحده حتى كان يوم الفتح ، فتعددت الألوية ، فكان فى جهينة أربعة ألوية ، وفى مزينة ثلاثة ، وفى أسلم و بنى بكر لواءان ، وفى كل من بنى سُليم و بنى غِفار و بنى كعب لواء واحد .

ومسألة حمل اللواء فى الإسلام لم تكن مسألة تقليدية وحسب ، بل إن المسلمين وهم قلة فى العدد يقاتلون قوما أسرفوا فى الطغيان ، و يتوافر عندهم المال ، و يستطيعون أن يثيروا على المسلمين حفيظة القبائل ، كانوا أحوج ما يكونون إلى رجل قوى القلب يحمل اللواء ، فيتبعونه لا يهابون شيئا ، لأنه يضرب لهم أحسن مثال فى الإقدام والتضحية ، وندرك هذا بوضوح عند ما نراجع غزوة بنى قريظة ، فقد بقى المسلمون يحاصرون يهود بنى قريظة خمسا وعشرين يوما ، وقد اعتصم اليهود بحصن عالى الجدران ، وفى نهاية اليوم الخامس والعشرين ركب علىّ

ابن أبى طالب فرسه وهو يحمل اللواء ، ثم نادى : (يا كتيبة الإيمان) : فلما تلفتوا نحوه ، قال : « والله لأذوقن ما ذاق حمزة ، أو لأفتحن حصنهم » ـ وهو يقصد حمزة عم النبى ، الذى قتل يوم أحد .

ثم هجم على الحصن ومعه فُرسان المسلمين ، ومن ورائهم الرجال يكبرون ، فرَفَعَ من فى الحصن راية التسليم ، وفتحوا الأبواب للمسلمين . وهنا الفكرة فى مسألة اختيار رجل قوى القلب لحمل اللواء فى القتال . وفى المطولات من كتب السيرة نجد أنه قتل من قريش فى يوم أحد سبعة من حملة اللواء ، منهم أربعة من بنى طلحة ، هم طلحة وعثمان وأسعد ومُسافِع ، فلما سقط لواء قريش ، كان فى هذا سبب ما ناله المسلمون من نصر صبيحة يوم أحد .

الجيش وأسلحة القتال

وقد كان المسلمون يقاتلون بالسيوف والحراب ، و يرمون بالنبل والسهام ، و يلبسون الدروع ، بل عرفوا حتى الخُوَذ لحماية الرأس ، ففى يوم الفتح كان النبى عليه الصلاة والسلام يغطى رأسه بخوذة من حديد تحتها عمامة سوداء .

وكان المسلمون فى أول عهدهم بالقتال يحاربون راجلين ، فلا خيل عندهم ، وفى أحد كان لديهم فرَسان إحداهما للنبى ، والأخرى لأحد الصحابة ، فلما كان حصار بنى قريظة كان لدى المسلمين ستة وثلاثون من الخيل ، فلما غنم المسلمون من بنى قريظة الكثير ، بعث النبى بسباياهم إلى نجد ، حيث بيعت هناك ، واشترى المسلمون بثمنها خيلا وسلاحا ، فكان فرسان المسلمين يوم خيبر مائتين .

وصحب هذا التطور ازدياد عدد الجند الإسلامى ، فقد كان جيش النبى يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، وفى غزوة بنى قريظة ثلاثة آلاف رجل ، أى أن العدد صار عشرة أمثال ، فلما جاء يوم الفتح كانت عدة جيش المسلمين عشرة آلاف ، وقيل اثنى عشر ألف رجل .

ولا نجد فى المطولات التى أُخرجت خالصة لسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، اهتماما بالحديث عن القتال وتنظيمه ، فى طول حياة النبى الكريم ، فإذا انتهينا إلى بداية عهد الخلفاء الراشدين ومن تبعهم من الأمراء ، نجد الأحاديث الطوال عن المعارك الكبرى التى خاضها المسلمون ، بقيادة أمثال سعد بن أبى وقاص ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، لبناء الإمبراطورية الإسلامية الأولى ؛ وعلة هذا أن هناك رغبة ملحة فى التفريق بين انتشار الدعوة الإسلامية و بين حروب المسلمين .

فالدعوة الدينية كانت تنتشر ، وستظل تنتشر ، تبعا لقدرتها على إقناع العقل ، و إرضاء الروح ، والإسلام بطبيعته فيه بساطة خالية من التكلف ، وأبسط الناس إدراكا وأقلهم حظا من المعرفة يستطيعون استساغته وتفهمه ، ثم النظر عن طريقه إلى الوجود و إلى ما وراء الوجود .

وغزوات النبى ليست للفتح ، فما كانت تعاليم القرآن ولا أحاديث الرسول تقول هذا ، بل كانت لإزالة كل حجر عثرة فى طريق انتشار الدعوة الإسلامية ، ومن أجل هذا لم يسرف مؤلفو السيرة فى الحديث عن صور القتال ، إسرافهم مثلا فى حديث الجدل الدينى مع اليهود .

على أننا من القليل الذى وصل إلينا فى سيرة ابن هشام ، وهى خير المراجع فى تاريخ حياة الرسول ، نستطيع القول بأنه لم يكن للمسلمين أسلوب خاص فى تنظيم الجنود للقتال ، وأن أسلوبهم فيه كان على غرار الأسلوب الإغريقى ، أى القتال فى صفوف متراصة ، حتى تسنح الفرصة للهجوم جملة ، أى للاقتحام معا بضغط الجموع ، على نظام « الفالانكس » الإغريقى .

وقد كانت المعارك كلها تبدأ على عادة العرب بالمبارزة ، فيخرج من بين الصفوف نفر من أى من الجمعين يطلبون أناسا للمبارزة ، فيخرج لهم من الجمع الآخر عدد مساو لهم ، وبما لا يرضون بهم فيطلبون بدلهم ، كما حدث يوم بدر ، عند ماخرج من صفوف قريش عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد ، فخرج إليهم فتية من أهل المدينة ، فلما عرفهم عتبة قال : مالنا بكم من حاجة ، إنما نريد قومنا ، ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فخرج إليهم حمزة بن عبدالمطلب ، وعلى بن أبى طالب ، وعُبيدة ابن الحارث .

وفى كل من غزوات النبى نجد المسلمين يصطفون مع الصباح ، ويتهيئون للقتال ، (ثم ينهض النبى ، فيستعرض جيشه ، ويمر على كل رجل منهم ، فيمده من عينيه العازمتين بعزم جديد ، ومن نفسه الحازمة بحزم فوق ما لديه) ، وكان النبى يقف بين المسلمين يعدل من صفوفهم ، فإذا اشتد القتال بقى النبى وسط المعمعة محرضا المؤمنين على القتال ، صائحا بهم أن الجنة لمن أحسن البلاء منهم ، ومن غمس يده فى العدو حاسرا ؛ وحينما يشتد القتال ، وينفع المسلمون بتحريض النبى نحو الموت لايبالون به ، كان النبى يقول : «شدوا» ، فيقتحم المسلمون خطوط المشركين وكأنهم قطع الصخر تنحدر من أعلى الجبل ، لا يصدها ولا يَقِفُها شىء .

فإذا وصلنا إلى أحد وجدنا النبى إلى جانب هذه الصفوف التى تقاتل فى المواجهة ، يحصن مؤخرته بجبل أحد ، وهو إلى حد ما مانع لا تعتليه الخيل إلا بجهد ، وهذا لكى يمنع نجاح المشركين فى تطويق جيش المسلمين ، وكان النبى قد تخير خمسين رجلا من الرماة ليرتقوا الجبل على أن لا يتركوا مكانهم مهما حدث .

ونشاهد هذه الصورة نفسها فى غزوة الأحزاب « الخندق » ، فعلى الرغم من حفر الخندق حول المدينة من طرف الحرة الشرقية ، إلى طرف الحرة الغربية ، جعل النبى جبل

سلع إلى ظهر المسلمين وقاية لهم ، وكان الخندق يحمى المسلمين من فرسان قريش ، ومن مشاتهم على السواء .

فأى فرق هنا بين الوقوف والاستناد إلى هذه الموانع الطبيعية للوقاية من الفُرسان ، ولمنع حركات التطويق ، ولوقف القوات التى تحاول التسرب وسط خطوط المسلمين إذا ما اشتد القتال، و بين الاستناد إلى الحفر ، والوقوف وراء الموانع الطبيعية للوقاية من الدبابات فرسان العصر الحديث ؟ !

حقوق الجند فى فجر الاسلام

والحديث عن حقوق الجند فى فجر الإسلام من أعقد المسائل ، ذلك لأن الجند الإسلامى الأول لم يكن شيئا آخر غير الأمة الإسلامية ، فالقتال للدين واجب كل فرد ، ومسئولية كل مسلم ، ولم يكن هناك قتال غير ذاك الذى كان فى سبيل الله ، ومن أجل دين الله .

ولكن مع هذا كان للجند حقوق ، حقوق مادية وأخرى معنوية ، والأولى المادية يلقونها فى الحياة الدنيا ، أما المعنوية فهى فى الآخرة .

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّاكِرِينَ » (آل عمران ١٤٥) .

« وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ » (البقرة ١٥٤) .

« مَنْ ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (البقرة ٢٤٥) .

« وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ » (آل عمران ١٤٧ و ١٤٨) .

وقد كانت هـذه الحقوق المادية فذّة فى نوعها ، ذلك لأنها لم توضع بقانون من نعل البشر ، وإنما جاءت من عند الله ، وكان تنظيمها بوحى منه سبحانه وتعالى ، وكانت الحقوق المادية مجملة فى تنظيم تقسيم غنائم المشركين ، ثم غنائم اليهود من بنى قينقاع وبنى قريظة ويهود خيبر ، وقد جاء حكم الله بعد بدر « واعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » (الأنفال — ٤١) .

والصورة الفذة فى هذه الحقوق المادية ، أنه كان للفرس ما للفارس ، وكان لورثة المتوفى من الجند نصيبه ، كما لو كان حيا ، وكان لمن تخلف عن القتال لعمل للمسلمين نصيبه ، كأنه قد حضر القتال ، وقد تساوى فى هذه القسمة من اشترك فى الحرب والنصر ، وكان لعمله فى الفوز حظ أيا كان هذا العمل ، سواء أكان فى ميدان القتال أم بعيدا عنه .

وقد جاء تفسير آخر بعد الانتصار على بنى قريظة ، ولكن لم يكن هناك أى خلاف فى الخمس الذى لله وللرسول ، وإنما كان فى تقسيم الباقى ، فقد كان للفارس ثلاثة أسهم للفرس سهمان ولفارسه سهم ، وللراجل سهم واحد ، وذلك لحث الجند على شراء الخيل ، لتقوية هذا الضرب من الجند فى جيش المسلمين ، وظل لورثة من استشهد نصيبه ، كما لو كان حيا وحضر القسمة .

فإذا انتقلنا إلى الحقوق المعنوية الحقوق التى هى ثواب الآخرة نجد معنى أروع وأعظم ، وقد كثر القول فى القرآن عن ثواب الآخرة للمجاهدين فى سبيل الله ، الذين يقتلون فى هذه السبيل ، وننقل هنا بعض ما فى سورة واحدة ، هى سورة آل عمران ، وجل ما فيها نزل بعد أحد ..

قال تعالى فى كتابه الكريم :

« وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ »
آل عمران ١٥٧ .

« وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللهِ تُحْشَرُونَ » آل عمران ١٥٨ «ولاَ تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » آل عمران ١٦٩ .

« فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِندِ ٱللهِ وَٱللهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ » آل عمران ١٩٥ .

وربما لا يكون من المنطق فى شىء أن نتعقب حديث القرآن الكريم فيما كتبه الله سبحانه وتعالى للشهداء ، الذين يقتلون أو يموتون مجاهدين فى سبيل الله ، فلا محل فى هذه الصفحات لهذا التعقيب الطويل ، ولكن لاجدال فى أننا نستطيع فى هذه الصورة المصغرة ، أن نلحظ ناحية واضحة براقة لهذه الحقوق المعنوية للجند الإسلامى الأول .

التعليق على هذه الحقوق

وفى التعليق على هذه الحقوق ربما لا نجد أمامنا إلا الحقوق المادية ، فنقابلها بغيرها من الحقوق المادية فى عصر آخر ، وقد يمكن أن نجد صورة لقسمة الغنائم بين الجند فى الحديث عن مصر الفرعونية فى الدولة القديمة ، وما كان فرعون يمنحه جنده بعد انتهاء المعركة ، على نسبة ما قتلوا من أعدائه ، ولكن هذه الصورة الدامية لا يمكن أن تقارن بقسمة الفىء عند المسلمين ، وما نظن أن نصيب الجندى فى معارك مصر القديمة كان يمكن أن يصل إلى ما نال جند المسلمين فيما غنموا فى غزوة حنين وحدها ، فكيف الحال بمن حضروا غزوات النبى كلها من المهاجرين والأنصار .

على أن الذى يعنينا من هذا ، أن القسمة فى الدول القديمة إنما كانت تقديرية ، لأنها حق أصله مِنْحَة ، وصاحب المنحة يملك أن يمنعها عن الناس ، ولكن القسمة بين المسلمين قسمة عادلة ، نظمها القرآن الكريم جملة ، ونظمها الرسول بوحى من عند الله تفصيلا ، وكانت هذ القسمة عادلة .

« فوالله لو أن لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم » . هذا عدا أن الخمس الذى لله ولرسوله ، كان مردودا على المسلمين ، إما مباشرة أو من طريق غير مباشر ، فقد أعطى يوم حنين للمؤلفة قلوبهم الكثير من هذا الخمس ، فكسب النبى للمسلمين شيئا بقضاء حاجة هؤلاء (المؤلفة قلوبهم) ، الذين كانوا أعداء المسلمين بالأمس .

فإذا انتقلنا إلى الحقوق المعنوية ، لا نجد صورة مماثلة لهذه الحقوق فى أى عصر ، لأن الحقوق التى جاءت فى العصور الأخرى ، كلها حقوق من فعل البشر ، سطرت فى قوانين وضعية ، وهى كلها تتحدث عن الدنيا التى يمكن فيها المنح ، والمنح فعل البشر ، وتبعا لرغائبهم ، ولكن الحقوق المعنوية التى جاء بها الإسلام ، كانت أبعد مدى وأعظم أثرا ، فإن القرآن هو الكتاب السماوى الوحيد ، الذى تحدث عن المجاهدين والشهداء ، الذين يحيون عند ربهم يرزقون ، والناس لا يشعرون .

***

ولكن إلى جانب هذه الحقوق المادية والمعنوية ، فإن المقاتلين المجاهدين ، أفراد من المسلمين لهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم ، فلا نلقى للجند أية ميزة تميزهم عن غيرهم من الناس ، فكلهم سواسية كأسنان المشط ، أقربهم عند الله أتقاهم ، ولهذا لا نجد ما يمكن أن نجده فى قانون حمورابى مثلا ، من حماية القانون لأملاك الجندى ، فلا ترهن ولا تباع ، ولا نجد ما نجده فى الدولة القديمة ، من التسامح مع الجنود فيما يرتكبون من مذابح أو سرقات للنهب ، بل ولا يمكن أن نجد ما نتغافل عنه حتى أكثر الدول مدنية اليوم ، من التسامح مع الجنود فى أعقاب الانتصار والفتح بعد القتال المجهد العنيف .

والفكرة التى يجب أن نضعها هنا نصب أعيننا ، هى أن حقوق الجند فى الإسلام قد حددها القرآن ، فهى ليست من فعل البشر ، وأن القرآن قد فرض على كل فرد من المسلمين واجبات نص عليها الدين ، وهذه لا يملك فرد ما ، أن ينزل عن شىء منها ، أو يتسامح فيها ، لأن هذه هى حقوق الله ، والأمر كله مرجعه إليه سبحانه وتعالى .

على أنه يجب ألاّ نختتم حديث هذه الحقوق دون أن نذكر ما وعد الله المسلمين من نصره إياهم « سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ » « آل عمران ١٥١ » . وهو إن يخذلهم سبحانه وتعالى ، فمن الذى يستطيع من بعده جل شأنه أن ينصرهم ؟ « إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » « آل عمران ١٥٩ » .

والوعد بالنصر من الحقوق المادية التى لا يمكن أن تقدر ، لاسيما وهو وعد من عند الله الذى لا يخلف الميعاد .

— ١٩ —

قيادة النبي

والآن وقد انتهينا من التحدث عن غزوات النبي عليه الصلاة والسلام ، من ناحيتي القتال والتخطيط للحرب في نطاق موجز ، بحكم التحديد الذي جاءت به هذه الحرب العالمية الثانية ، لا نستطيع أن نختتم هذه الصفحات ، دون أن نقف متمهلين ، بإزاء ناحية فذة من حياة محمد القائد ، هي ناحية «قيادته للجند» ، ثم «إدارته للرجال» ، هذه الإدارة التي يسمها عسكريو الغرب اليوم بعنوان Man Management أي المهارة في توجيههم ، والسيطرة على كل المسائل الاجتماعية الخاصة بهم .

وفي الحديث عن قائد ما ، يجب أن يقصر الحديث على الموازنة بينه وبين أولئك الذين سبقوه من قادة الجند . ولهذا فقد كان يجدر بنا لو شئنا أن نتحدث عن تخطيط محمد عليه الصلاة والسلام للحرب ، أو عن الأصول التي جاءت واضحة في قيادته للجند ، وهم حفنة من الرجال ، أقوى ما فيهم قلوبهم المليئة بالإيمان ، أن نوازن بينه وبين فيجيتس الروماني ، الذي وضع أصول التدريب العسكري والقتال للرومان ، في قرابة عصر النبي « ٣٩٠ من ميلاد عيسى عليه السلام » ، على أن تكون هذه الموازنة على قياس الزمن التاريخي لا على أي قياس آخر .

ولكن الواقع أننا نستطيع أن نوازن بين الأصول التي اتبعها محمد عليه الصلاة والسلام ، وبين تعاليم موريس دي ساكس في فن الحرب ، بل وما خطه فردريك الأكبر للقادة ، من تعاليم في فني التخطيط للحرب ، وإدارة المعركة عام ١٧٤٧ من ميلاد عيسى عليه السلام .

ولسنا نسرف إذا وازنا بين محمد كقائد ، وبين نابليون أو كلاوزفيتز أو غيرهما ، من عباقرة العسكريين في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ولكن هل يمكن أن ننظر

إلى قيادة محمد عليه الصلاة والسلام ، دون أن تبهرنا عظمة رسالته ؟ وهل يمكن إذا تحدثنا عنه كقائد ، فنظرنا إلى زعامته الدنيوية ، أن نتناسى إلى حين النبوة والزعامة الدينية ؟ كثير من الناس يقولون بعدم إمكان هذا ، وهم يستندون إلى القرآن الكريم في تحدثه عن محمد النبي ، رسول رب العالمين إلى الأمم كافة ؛ وأنا أقول بأن رسالة النبي الكريم قد احتاجت إلى القتال لفسح الطريق لنشر الدعوة ، والجهاد جاء عاملا للدعوة لدين الله ، فرسالة محمد إذن لا تحول دون أن نتحدث عن قيادته للجند ، وأن نفحص فى ضوء العصر الحديث صفات القيادة التى كانت فيه ، وأن نوازن عبقرية محمد العسكرية بأحدث ما وصل إليه العالم من صفات يجب أن تتوافر فى القائد الجيد ، وأن نوازن بين إدارته للمعارك ، وإدارة كبار القادة لها ، حتى فى عصر الحرب البرقية الحديثة .

ولقد قدمنا فى حديث سابق ما يراه الماريشال ويفل من صفات القائد الجيد ، ووضح لنا من دراسة معارك الرسول الامِيِّ ، توافر هذه الخصال فيه ؛ ولسنا نجد فى كل قصص التاريخ أروع من أن يعمل النبي بيديه ، مع المسلمين فى حفر الخندق حول المدينة ، له نصيب فى العمل مثل نصيبهم ، ولا يمكن أن يوصف فرد بالإنسانية ، فيفعل أكبر مما فعل الرسول فى الصفح عمن آذوه ، وآذوا المسلمين الأولين ، وحالوا دون نشر الدين ، أو الدعوة له ، وفى إطلاقه سراح فقراء قريش من أسرى بدر ، ولا فى العفو عن بنى قينقاع من يهود المدينة ؟ وهل يمكن أن نجد القائد المخاطر الجرىء الذى يخرج فى حَفنة من الرجال ، ليقاتل جيشا كاملا هو على موعد مع قائده ، كما خرج محمد عليه الصلاة والسلام يوم بدر الأخرى ، فى جماعة لم يزد عددها على سبعين مقاتلا ؟ اللَّهُمَّ إننا لا نجد مثل هذه الصور الفذة ، التى جاءت فى حياة الرسول الأمين .

ولكن كل هذا الحديث قد يكون وقفا على ناحية واحدة من قيادته ، هى ناحية « إدارة الرجال » ، ومن الواجب أن ننظر إلى عبقرية محمد العسكرية من ناحية أخرى ، هى دراستنا للتعاليم والأصول التى جاء بها فى معاركه ، وأساس هذه الدراسة يبدأ من

معركة بدر الكبرى ، المعركة التى يقول عنها أستاذنا الكبير عبد الرحمن بك عزام : إنها قد نقلت السيطرة العسكرية فى بلاد العرب من مكة إلى المدينة[١] (والمعركة التى أثبتت أن النظام العسكرى الذى استحدثه هو نظام يفوق ما يعلمه أهل عصره) ، فالواقع أن النبى الأمين ، قد وضع فى بدر ، قواعد الجيش الإسلامى ، والجندية الإسلامية ، وكانت كتيبة محمد عليه الصلاة والسلام التى حضرت بدرا معه ، نواة هذا كله .

وفى استعراضنا للتسجيل الذى جاءنا فى مطولات كتب السيرة ، نجد كثيرا من الأصول العسكرية ، التى تستأهل منا الدرس . أولها : عمل القائد على أن يقوى روح جنوده المعنوىّ ، والقوى المعنوية يقيسها نابليون إلى القوى المادية ، كالنسبة بين العددين ٣ — ١ ، ولكن أولئك الذين يقدرونها بهذه النسبة يتحدثون فى الواقع عن قوى معنوية تجىء بإيضاح منطق سياسى ، أو عاطفة قومية عامة ، ولكن القوى المعنوية التى جاء بها النبى ، إنما كانت مستمدة أصلا من القرآن الكريم ، ثم من وقوف النبى القائد بين جنده ، يُقَوِّمُ صفوفهم ويشجعهم ، ويمنحهم من عينيه القويتين عزما وقوة .

بل وفى كل هـذا ، لا يقف من عامتهم موقف القائد الكبير ، بل موقف الزميل ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم (وفى بدر ، رأى النبى وهو يقوم الصف ، رجلا خارجا عن رفاقه فى الصف ، فوكزه ، فقال الرجل : أوجعتنى يا رسول الله ، فأقدنى منك . فكشف النبى صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال : اقتص لنفسك ، فقبل الرجل بطن النبى ، فقال النبى : ولم إذن ؟ قال : أردت أن يكون هـذا آخر عهدى بالحياة) . فأية روح بعد هذا تدفع هذا الجندى إلى الاستماتة فى القتال ، من أجل النبى الذى يؤمن برسالته ؟ .

وليست بدر وحدها هى التى تحوى أمثال هذه القصة ، بل إن النبى عليه الصلاة والسلام ، كان يقدم للمجاهدين المسلمين فى كل الغزوات أحسن الأمثلة ، التى تقوى قلوبهم وتشحذ عزائمهم .

---

(١) راجع (بطل الأبطال) للأستاذ عبد الرحمن عزام بك، طبع مصطفى الحلبى وأولاده

والصورة الثانية ، هى ضرورة تجنب القائد للقتال عند ما لا يريده ، سواء أكان لتجنب القتال كسب استراتيجى أو تكتيكى ، وقد تجنب النبى مطارده ، عند ما وجده يجد فى السير إلى بنى غطفان ، والمسلمون ليسوا فى قوة تكفى للاصطدام بهم ، لو أجاروا الرجل الذى يسرع نحوهم وهم مجيروه ، كما تجنب الاصطدام بالخيل التى عليها خالد بن الوليد يوم أن قصد مكة للحج لا للقتال ثم انحداره عن الطريق فى دورة واسعة حتى نزل الحديبية ، فبات على مقربة منها ولا جند فيها على أهبة القتال ، يستطيع أن يحول بينه و بين فتحها عنوة لو أراد هذا ، ولكن النبى توقف عن السير ، فكسب فى صلح الحديبية مكة التى دانت له بعد قليل دون قتال .

والأمر الثالث الذى يهمنا من الناحية العسكرية ، هو إدراك النبى عليه الصلاة والسلام أهمية الاستطلاع ، والكشف عن تجمعات العدو ونيات قادته ورجاله ، وكل البعوث والسرايا التى بعث بها النبى قبل بدر كانت للكشف ، وتبدو عبقرية محمد العسكرية فى تخيره الأماكن التى يوجه إليها سراياه ، وإلى تغييره لهذا التوجيه المرة بعد الأخرى ، ولهذا نستطيع أن نقول غير مسرفين إن هذه السرايا بما كانت تعود به من أنباء قريش وغيرها من القبائل كانت تجعل النبى دائما على علم تام بنيات أعدائه وتدبيرهم للقتال .

وفى هذه السرايا والبعوث ، نجد شيئا هاما ، هو سرية توجيه جماعة الكشف والاستطلاع . وفى الحروب الحديثة قد تمخر الأساطيل عباب البحر فى اتجاه معين على أن يفض قائدها كتابا مغلقا فى مكان ما ليجد أمرا آخر ، وفى اتجاه غير ما عين له ، وذلك للاحتفاظ بسرية الأمر الذى وكل إليه ، وقد بعث النبى عبد الله بن جحش قبل ثلاثة عشر قرنا ، ومعه كتاب يجب ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، وذلك ليجهل كل فرد فى المدينة إلى أين يقصد عبد الله بن جحش ، فلا يكتب بهذا لقريش .

وفى سرية ابن جحش هذه مخاطرة ، والنبى لا يريد أن يكره فردا ، على المسير إلى حيث لا يريد ، فهو يقول لعبد الله فى كتابه : « ولا تكرهن أحدا من أصحابك على المسير معك ؛

وامْض فيمن تبعك » ، وما فعله النبى هو ما يفعل اليوم فى أحدث الجيوش وأقواها ، من تخير الأفراد للمخاطرات بالتطوع والرغبة لا بالأمر والسلطان .

و إذا كان النبى يخشى أن يكون فى المدينة عين عليه وعلى أصحابه من قبل قريش ، فهو لا يغفل أن يكتسب له فى قريش عينا ، وقد كان عمه العباس عينه على قريش ، ولا نقول جاسوسه بينهم .

ونجد صورة من هذا أيضا فى انتفاع النبى عليه الصلاة والسلام بنُعيم بن مسعود من بنى غطفان ، فى الوقيعة بين بنى قريظة وقريش فى معركة الخندق .

والأمر الرابع هو معرفة النبى عليه الصلاة والسلام أهمية العمل على خطوط المواصلات والتموين ، وأول ما يبدى هذه الحقيقة نراه واضحا فى السرايا التى بعث بها النبى ، فهو بحكم موقع المدينة الجغرافى ، كان يقف على الطريق بين مكة والشام ، والطريق بين مكة والشام هو خط مواصلات قريش وتموينها ، ففيه تسير قوافلها بالتجارة ، وفيه تعود حاملة لمكة ما تحتاج إليه من إنتاج الشام ، واستطاع النبى عليه الصلاة والسلام بهذه البعوث التى كان يرسلها أن يهدد الطريق ، فأرغمت قريش على أن تبعث بقوافلها من طرق غير مسلوكة ، وأن تتنكب بها فى سبل وعرة عبر الصحراء حينا ، ومساحلة البحر حينا آخر ، فتعطلت تجارتها ، وقل كسبها ، والمال عصب الحرب ، وبهذا لم تكن قريش دائما متأهبة لقتال النبى برغم حفيظة أهلها عليه ، وعلى الدين الذى يبشر به .

وفى ذات القياس نجد ما قام به الأسطول الإنجليزى فى الحربين العالميتين من تهديد الطرق البحرية بين ألمانيا والعالم ، ثم ما قامت به قاذفات القنابل الإنجليزية من تدمير خطوط مواصلات الألمان داخل قارة أوربا ، فاضطر الألمان إلى أن ينفضوا أيديهم من خطوط المواصلات المهددة إلا للحاجة القصوى ، واتجهوا إلى نقل عتاد الحرب بالسفن النهرية والسيارات ، مما كان يعطل الإمداد والتموين ، وقد استطاع الحلفاء بإغاراتهم الاكتساحية فى غرب أوربا بعد ، الغزو من الغرب ، أن يعطلوا مواصلات الألمان لأسبوعين

كامِلين كانوا فيهما قد ثبتوا أقدامهم تماما عند كان ، وفى شبه جزيرة كونتين جنوبى شربورج .

على أن الصورة الفذة فى عبقرية محمد العسكرية ، إنما تجىء من إدراكنا لأهمية الاحتفاظ بالغرض ، والبحث دائما عن العدو الأساسى ، وضربه الضربة الحاسمة ، فإن الخصم الأول للإسلام والمسلمين هو قريش ، فلم يفكر النبى فى شىء تفكيره فى قريش ، ولم يغفل النبى قط عن قريش ، ولم يتركها لحظة واحدة هادئة ، تفكر أو تعمل على خداعه ومفاجأته .

وكلما وصل النبى إلى كسب مادى فى القتال ضد قريش كان يتبعه بعمل سريع حاسم ضد الخصوم غير الأساسيين ، الذين يساهمون فى معاونة قريش أو اليهود ، أو يذهبون مذهب هؤلاء فى إيذاء المسلمين .

وفى كل هذه المعارك نجد محمدا عليه الصلاة والسلام لا يعتد برأيه ، ولا يتوانى قط عن استشارة أصحابه ، وإذا كان القائد اليوم يضع خطته للقتال فى جمع من أركان الحرب ، ومن قادة الأسلحة المعاونة من مدفعية أو طائرات أو عربات مدرعة ، يستمد منهم المشورة والإرشاد ، ويعرف منهم ما يستطيعون بذله من جهود ، وما لا يستطيعونه من عمل ، فإن محمدا عليه الصلاة والسلام كان يجمع أنصاره ، فيشاورهم فى الأمر ، ويعرض عليهم مختلف وجهات النظر ، يناقشونها فى صراحة ، ويدلون بدلوهم ويقدمون اقتراحاتهم ، وينزلها النبى ما تستحقه من العناية ، ثم ينفذ ما اتفق عليه رجاله كلهم ، ففى بدر وقف حيث أشار الحُباب بن المنذر ، وفى الأحزاب أمر بتنفيذ ما أشار به سلمان الفارسى من حفر الخندق ، ولم يجد النبى فى تقبل مشورة رجاله أية غضاضة ، ذلك لأنها الحرب والخديعة والمكر ، وما دام الله لم يأمره بشىء يوحى به إليه ، فمن الواجب أن يتبع مشورة من لهم التجربة والدراية بالأمر .

وهذه المشاورة هى فى الواقع ما يقال عنه اليوم فى حديث الحرب تقليب أوجه النظر ، والموازنة بين مختلف « طرق الحل المفتوحة » Courses Open ، وإن كنت أتفق تماما

مع ما قاله الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ، من أن النبي كان خليقا به أن يشير بحفر الخندق حول المدينة يوم الأحزاب ، حتى ولو لم يكن سلمان الفارسي في المدينة ؛ ذلك لأنه عليه الصلاة والسلام كان شديد العناية بأن يحال بين العدو و بين الاقتراب من المسلمين .
وفي يوم أحد كان أول ما أمر به ، هو ترك خمسين من الرماة يقفون وراء المسلمين يحمون ظهورهم ، ولا يتركون مكانهم مهما حدث ، قائلا لهم : « احموا ظهورنا ، فإنا نخاف أن يجيئوا من ورائنا ، وألزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، و إن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم ، فلا تفارقوا مكانكم ، و إن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدافعوا عنا ، و إنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل » .

* * *

إلى هنا يقف بي الحديث ، فهذا غاية ما استطعت ؛ وما وفقني الله إليه ، وليس لي إلا أن أقول « لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ » .

(صـــدق الله العظيم)

شكر

لا يسعنى وأنا أراجع الصفحة الأخيرة ، من كتاب : **محمد القائد** إلا أن أحمد الله وأشكره ، على أن تهيأت لى الفرصة لإتمام هذا الكتاب ، الذى أقصد به الوسيلة إليه تعالى ، والتقرب إلى صاحب الشفاعة العظمى صلى الله عليه وسلم .

كما لا يغيب عنى هنا ، أن أهدى وافر الشكر والثناء ، لحضرة صديقى الأستاذ **مصطفى السقا** المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، لإشرافه على طبع الكتاب إشرافا علميا ، ولعنايته بمراجعة الأصول مراجعة دقيقة ، ولما بذله من جهد فى تصحيح هذه الصفحات كلها ، وهو جهد مشكور ، لمسته قبل أن يلمسه القراء . فجزاه الله عنى أحسن الجزاء ، ووفقنا جميعا إلى صالح الأعمال ؟ .

عبد الفتاح ابراهيم

فهارس الكتاب

في هـذه الفهارس لم نذكر أرقام العشرات ولا المئات إذا تقدمها ما يدل عليها فمثلا الأرقام التي تدل على الصفحات ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ذكرت ٥٤ ، ٥ ، ٦ ، ١١١ ، ١٢ ، ١٣

فهرس الآيات الكريمة

فى الإسلام والقتال

الآيات البينات فى القرآن الكريم التى ذكر فيها القتال فى سبيل الله لنصرة دينه ونبيه ، والتى نظمت تشريع القتال فى الإسلام ، كما تحدثت عن نصيب جنود المسلمين الأولين ، وما سيلقونه من ربهم ، أولئك الذين قاتلوا فقتلوا محتسبين مقبلين غير مدبرين .

البقرة « جزء ١ و ٢ و ٣ . مدنية ، إلا آية ٢٨١ فنزلت بمنى فى حجة الوداع »

١٥٤ و ٩٠ و ٩١ و ٩٣ و ٩٤ و ٢١٦ و ١٧ و ٤٤ و ٤٦ .

آل عمران « جزء ٣ و ٤ ، مدنية ، نزلت بعد الأنفال »

١٣ و ١٤٦ و ٥٤ و ٥٥ و ٥٦ و ٥٧ و ٥٨ و ٦٧ و ٦٨ و ٦٩ و ٧٣ و ٩٥

النساء « جزء ٤ و ٥ و ٦ ، مدنية ، نزلت بعد الممتحنة »

٧٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨٤ و ٩ و ٩٠ و ١ و ٤ و ٥ و ١٠٢

الأنفال « جزء ٩ و ١٠ ، مدنية إلا من آية ٣٠ إلى غاية آية ٣٦ فمكية ، نزلت بعد البقرة »

١٦ و ٧ و ٤٠ و ٥ و ٦٠ و ٥ و ٦ و ٧

التوبة « جزء ١٠ ، مدنية ، إلا الآيتين ١٢٨ و ١٢٩ ، نزلت بعد المائدة »

٥ و ١٢ و ٣ و ٤ و ٢٤ و ٥ و ٦ و ٩ و ٣٦ و ٨ و ٤١ و ٨١ و ٣ و ١١١ و ٢٣

الحج « جزء ١٧ ، مدنية إلا الآيات ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ فمكية ، نزلت بعد النور »

٣٩

الأحزاب « جزء ٢١ ، مدنية ، نزلت بعد آل عمران »

٢٠ و ٥ و ٦ و ٧

الفتح «جزء ٢٦ ، مدنية ، نزلت بعد الجمعة فى الطريق عند الانصراف من الحديبية»

٢٢

الحجرات « جزء ، ٢٦ ، مدنية ، نزلت بعد المجادلة »

٩

الحديد « جزء ٢٧ ، مدنية ، نزلت بعد الزلزلة »

١٠

الحشر « جزء ٢٨ ، مدنية ، نزلت بعد البينة »

١١ و ٢ و ٤

الصف « جزء ٢٨ ، مدنية ، نزلت بعد التغابن »

٤

المزّمل « جزء ٢٩ مكية إلا الآيات ١٠ و ١١ و ٢٠ فمدنية ، نزلت بعد القلم»

٢٠

فهرس الأعلام

فهرس القبائل والأماكن

فهرس الموضوعات

[بعون الله تعالى تم طبع كتاب :
« محمد القائد » فى يوم الاثنين الموافق ١٨
من شوال سنة ١٣٦٤ (٢٤ من سبتمبر
سنة ١٩٤٥) والحمد لله]

مدير المطبعة
رستم الحلبى